﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

الإصلاح

لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا

رقم الإيداع: 2006 - 3623 ISSN : 1112 - 6825

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

• الإصلاح النفسي للفرد أساس استقامته وصلاح أمته
د. محمد علي فركوس

• كلمة في منهج الدعوة إلى الله
عبد الغني عوسات

• دعوة التوحيد هي دعوة الحق
عبد المالك رمضاني

العدد الأول - محرم/ صفر 1428 هـ الموافق لـ جانفي/ فيفري 2007 م



أيُّها القرَّاء الكرام
نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد
ونسعَد بكلِّ نقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «الإصلاح»
وسيلة لنشر العلم النَّافع

للمراسلات:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي دوزي، قطعة (01)، رقم (06) باب الزوار. الجزائر
ص ب 22 مكرر. 16027
الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

للمراسلات الإلكترونية:
darelfadhila@maktoob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

اقرأ في هذا العدد...



الإصْلاَحُ النَّفْسِيُّ للفَرْدِ
أساسُ استقامتِه وصلاحُ أمَّتِه

الشيخ محمد علي فركوس

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على مَنْ أرْسَلَهُ اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِه وإخوانه إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فإنَّ أشدَّ ما تكون إليه حاجةُ الأُمَّةِ اليوم هو انْضِوَاءُ أفرادها تحت لوائها بحيث يمثِّل كلُّ فرد منهم لَبِنَةً قويَّةً صالحةً، تشيِّد بناءَ الأمَّةِ، وترسِّخ دعائمَه، وتُعلي صرحَه؛ لأنَّ فسادَ الأمَّةِ بفساد أفرادها، ومناطُ صلاحِ الأمَّة بصلاح أبنائها، وقد أَثْنَى اللهُ تعالى على خَيْرِ جِيلٍ عَرَفَتْهُ البشرية يحملُ صفاتٍ لم تبلغها أمَّةٌ لم تَنْعَمْ بنعمة الإسلام، اتَّصَفَ باستيعاب «لاَ إلهَ إلاَّ الله، محمَّدٌ رسولُ الله» على الوجه الّذي أراده الله، فلم تكن عندهم كلمةً عابرةً، وهم بعيدون عن مقتضاها وعن منهجها الشامل لكلِّ مناحي الحياة، ولا قضيَّةً خفيفةَ الوزن يقولونها بألسنتهم وقلوبُهم غافلةٌ عنها، وسلوكهم الواقعيُّ مخالفٌ لها أتمَّ المخالفة، وإنَّما عرفوها حقَّ المعرفة وقَدَّرُوها حقَّ قَدْرِهَا، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فكانوا أفرادًا متجانِسِين أهلَ مُعْتَقَدٍ واحد، يسيرون على مسارٍ واحدٍ لا عِوَجَ فيه كما أمرهم ربُّهم سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويُؤَلِّفُونَ مُجْتَمَعًا مؤمنًا له شخصيتُه الفَذَّةُ القويةُ، وهم متكتِّلون على كلمة التوحيد الخالص استيعابًا وسلوكًا، وبصدقٍ وأمانة.

فتَحَقَّقَتْ بعقيدةِ التوحيدِ أوَّلُ وحدةٍ في تاريخ البشرية قائمة على تجريد العبادة لله وحده بجميع

أنواعها، وتجريدِ متابعة رسول الهدى محمد ﷺ، والاكتفاءِ به إمامًا وقدوةً، والعملِ بسنَّتِه والدَّعوة إليها، وتحذيرِ النَّاس من الابتداع في دين الله تعالى، فكان أنْ وَرَّثَ هذا التَّجريدُ وتلك المتابعة الصادقة ثمراتٍ حسنةً ارتفعوا بها عن الحضيض، واستحقُّوا التمكينَ في الأرض، فظهر على يدهم فتحٌ من الله لا مثيلَ له في التاريخ من قبلُ ولا من بعدُ؛ حيث امتدَّ الإسلامُ ـ من خلال نصفِ قَرْنٍ من الزمان ـ من المحيطِ إلى ما وراءَ الهند، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

ومن خلالِ مُقَوِّمَاتِ هذا الجيل وثوابتِه الأصِيلةِ، تَبَلْوَرَتْ عنايةُ الإسلام بالعُنصر النَّفسي للفرد؛ لأنَّ الإصلاحَ النَّفسي للفردِ هو القاعدة الأساسيَّةُ لصَلاحِه وصلاحِ أُمَّتِه، وهو الدِّعامة الأولى لاستقامتِه وسعادتِه في الدَّارين، إذْ أنَّ نفسَ الفردِ مركَّبَةٌ من حيثُ القوَّةُ والغلبَةُ إلى:

ـ شقّ فِطريٍّ إيجابيٍّ أصِيل، جُبِلَتْ فِطْرَتُه على محبَّةِ الحقِّ والخيرِ، ومستعدَّةٌ لإدراك معرفة الحقائق، وتَسْعَدُ بإدراكِها، وتَأْسَى على مخالفتِها، ولولا المعارِضُ لبَقِيت على حالتِها منَ السَّلامةِ والاستقامةِ، فهيَ مُقتضيةٌ لدينِ الإسلامِ، ومُستلزمةٌ للإقرار بالخالقِ سبحانه ومحبَّته وإخلاصِ الدِّين له، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «لقد أَوْدَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ في قلوب العباد من المعارفِ الفطريَّة الضروريَّة ما يفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، وما يجعلها مستعدَّةً لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من هذا الاستعداد والتمَكُّنِ لما أفاد النَّظَرُ والاستدلالُ ولا البيانُ، كما أنَّه سبحانه جعل الأبدان مستعدَّةً للاغتذاء بالطَّعام والشَّراب، ولولا هذا الاستعدادُ لما أمكَنَ تغذيتُها وتربيتُها، وكما أنَّ في الأبدان قوَّةً تفرِّق بين الغذاء الملائم والمنافي، ففي القلوبِ قوَّةٌ تفرِّق بين الحقِّ والباطل أعظم من ذلك»[1].

ـ وشقٌّ سلبيٌّ عارضٌ على الفطرة التي قد تَضْعُفُ ويَخْفُتُ نورُها فيَعْرِضُ لها ما يغيِّرُها ويحوِّلها إلى مِلَلِ الكفر والشِّرك بسبب مؤثِّرات خارجيَّةٍ كالطَّبائع الشِّرِّيرة، والبيئة السَّيِّئة الَّتي يتربَّى فيها الإنسان منذ صغَرِه، ففي الحديث: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ**



فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[٢]، أو بسبب نَزَغَاتٍ شيطانيةٍ طائشةٍ تميل به عن الجادَّةِ وتنحرف به عن سَوَاءِ السَّبيلِ، وإلى هذا المعنى يشير النبيُّ ﷺ بقوله فيما يَرْوِي عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لهمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[٣]، فارْتَبَطَ مصيرُ الإنسانِ في دنياه وآخرته بِرُجْحَانِ أحدِ الشِّقَّيْنِ: شقِّ الخير والتقوى، أو شقِّ الشَّرِّ والفجور؛ فمن طهَّر نفسَه بطاعة الله، وأصلحَها من الأخلاق الدَّنيئة والرَّذائل فقد أفلح وربح، ومن أخملها ودسَّها حتى ركب المعاصي وترك طاعةَ الله فقد خابَ وخَسِرَ، وأصلُ هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠**﴾ [الشمس: ٧ـ١٠].

لذلك أرسل اللهُ الرسلَ لتذكِّرَ النفسَ بوجوب المحافظةِ على طهارة فِطْرَتِها المتجلّيةِ في معرفةِ الله ومحبَّتِه والإخلاصِ له وإيثارِه على غيرِه، وتُنبِّهها عليه، مع التَّفصيلِ والبيانِ، وتعرِّفُها الأسبابَ المعارضةَ لموجبِ الفِطرةِ المانعةِ من اقتفاء أثرِها، كما حذَّرتْ من الاستسلامِ للنَّزعاتِ الشّيطانيَّةِ والطَّبائعِ الشِّرِّيرةِ الطَّارئةِ على النَّفس التي تُضْعِفُ من عَزْمِهَا، وتَرمي بها في بُؤَرِ الضَّلال وساحاتِ الهوَى، وتَنحرفُ بها عن سَواء السَّبيل؛ فدَعَتْ إلى تخليصِ الفطرةِ من كلِّ ما قد يعكِّر صفاءَها ويَذهبُ بنقائِها ممَّا يُلابسُها من الشَّوائبِ والعوالقِ المدنِّسةِ، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠**﴾ [الروم: ٣٠]، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهكذا شأنُ الشَّرائعِ الَّتي جاءت بها الرُّسلُ، فإنَّها أمرٌ بمعروفٍ، ونهيٌ عن منكرٍ، وإباحةُ طيِّبٍ، وتحريمُ خبيثٍ، وأمرٌ بِعَدْلٍ، ونهيٌ عن ظلمٍ، وهذا كلُّه مَرْكُوزٌ في الفطرة، وكمالُ تفصيلِهِ وتَبيينه موقوفٌ على الرُّسل»[٤].

وعلى أساسِ معاييرِ الهدايةِ الَّتي جاءتْ بها الرُّسلُ تقوم دعوةُ المصلحين إلى توحيدِ الله ربِّ العالمين وعبادتِه ومحبَّتِه والإخلاصِ له، فهو أصل الدِّين، ودعوةُ جميع الأنبياءِ والمرسلينَ، وهو ركنُ الأعمالِ وشرطُ التَّمكين في الدُّنيا، والنجاةِ في الآخرةِ، وبِهِ تَتَّحِدُ الأمَّةُ وتجتمع على إمَامِها وقدوَتِها محمَّدٍ ﷺ، فلا وحدةَ بدونِ توحيدٍ، ولا

اجتماعَ بلا اتباعٍ.

وميدانُ الإصلاحِ يدعُو القائمينَ به إلى تطهيرِ الفطرةِ من الأَخْلاَطِ والشَّوائبِ ممَّا يُضَادُّ التوحيدَ الخالصَ، والتَّحذيرِ من دعاوَى الجاهليَّة ومظاهرِ الشِّركِ وأشكالِ الخُرَافَةِ وأنماط البدَعِ، ومحاربةِ كلِّ أسبابِ الانحرافِ عن دينِ الفطرةِ بإظهارِ الحقِّ، والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ بوسيلةِ العلمِ الشَّرعيِّ الصَّحيحِ الَّذي هو مادَّةُ الإسلام وموضوعُه، وبمنهجٍ مُستمَدٍّ من الكتابِ والسُّنَّةِ وما عليه سلفُ الأمَّة.

كما أنّ ميدانَ الإصلاح يُنادي أصحابَه إلى رَبْطِ النُّفوسِ بشريعة الله الشَّاملةِ لجميع ميادين الحياةِ فيما يحتاجُه النَّاسُ لصَلاح دنيَاهُم وآخرتِهم، وغرسِ الأخلاقِ الفاضلةِ ومبادئ البرِّ والإحسان والتَّعاون على الحقِّ والخير بالأسلوب الدَّعويِّ المنْبَثِق من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

كما أنَّ ميدانَ الإصلاح يَتَطَلَّبُ من القائمين عليه من دعاةِ الحقِّ أن يكونوا على بصيرةٍ بالمجال الدَّعوي: مِنْ علمٍ دقيقٍ بالشَّرع ومقاصدِه العُلْيَا، ومَرَامِيهِ النَّبيلةِ مع الصِّلة الوثيقة بالله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وأنْ يَبْتَعِدُوا في مسيرتهم الدَّعويَّة عن الجَفْوَةِ والغِلْظَةِ وسُوءِ الأدَبِ والمنْقَلَبِ، فالرِّفقُ في الأسلوب من أبرزِ خصائصِ دعوةِ الحقِّ، وأنْ يَتَنَزَّهُوا عن الأغراضِ الدَّنيئةِ والاغترارِ بالدُّنيا؛ لأنَّ الانشغالَ بها والتَّلَهِّي عن الآخرةِ أَوَّلُ طريق الضَّيَاع، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون: ٩]، وأن يلتزموا التوكُّلَ على الله والتحلِّي بالصَّبر على دعوتهم إلى الخير والرُّشد والسُّؤْددِ، ويعتبروا بما واجهَ النبيُّ ﷺ من كلِّ أشكال الصُّدُودِ والفُجُورِ، وكلِّ ألوان الكُنُودِ والجُحُودِ، فَصَبَرَ عليها وصَابَرَ ورَابَطَ حتَّى أتمَّ اللهُ دعوتَه، وانتشرتْ في الآفاقِ.

إنَّ صبرَ الدُّعاةِ المصلحينَ على ما يُصيبُهم هو من عَزَائِمِ الأمور؛ لأنَّه صبرٌ على استكبارِ الجاحِدين، وجَفْوَةِ العُصاةِ، وعَنَتِ المدْعُوِّينَ، وهو من علامات أهلِ الصَّلاح المتَّقين، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٢]،



كما هو من صفاتِ الأئمَّةِ المقتدَى بهم، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

هذا، وإذا تحقَّقتِ الدِّعامةُ الأولى لصَلاح الفردِ بإصلاح نفسِه، فقد استقامَت لَبِنَةٌ لمجتمعه المسلم، تنتظِمُ إلى جانبها لَبِنَاتٌ قويَّةٌ صالحةٌ يُشيَّدُ بها صَرْحُ أمَّة الإسلامِ كالبنيانِ المرصوصِ يشدُّ بعضُه بعضًا، تَقرُّ بها أعينُ الموحِّدين في تماسُكها وعزَّتِها وتَمكِينِها وهَيْمَنَتِهَا، وتحتلُّ صدارةَ المجتمعات على مدى الزَّمانِ وفي كلِّ الأحوالِ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

نسألُ الله تعالى أنْ يفتحَ علينَا بالاعتصامِ بحبلِهِ المتينِ، وأنْ يجمَعَ كلمتَنا على التَّقوى والدِّينِ، وأنْ يوفِّقَ القائمينَ على الإصلاحِ في دعوتِهم، ويسدِّدَ خُطاهم، ويجمعَهم على التَّعاونِ على البِرِّ والتَّقْوَى والتَّواصِي بالحقِّ والصَّبرِ، والله من وراء القصدِ وهو يهدي السَّبيل.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تَسْلِيمًا.

(١) «درء تعارض العقل والنَّقل» لابن تيمية: (٥/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز: (٣/ ٢١٩)، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصَلَّى عليه، ومسلم في القدر: (١٦/ ٢٠٧)، باب معنى كلِّ مولود يولد على الفطرة، وأبو داود في السُّنَّةِ: (٥/ ٨٦)، باب في ذَرَارِي المشركين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الجَنَّة وصفة نعيمها وأهلها: (١٧/ ١٩٦)، باب الصِّفات التي يُعرف بها في الدُّنيا أهلُ الجنَّة وأهلُ النَّار، وأحمد (١٧٩٤) من حديث عياض بن حمار المجَاشِعِيِّ رضي الله عنه.

(٤) «شفاء العَليل» لابن القيِّم: (٢/ ٨٢١).

* * *

الإصلاح في القرآن
(مفهومه وميادينه ومسالكه)

عز الدين رمضاني

إنَّ المتتبِّعَ للمواضع التي ذُكِر فيها الإصلاحُ في القرآن يظهر له بوضوح ـ لا يدع مجالاً للشكِّ ـ أنَّ هذه الكلمة وما يتفرَّع منها من ألفاظ واشتقاقات، وما يُستوحى منها من معانٍ ومدلولات، قد تبوّأت مكانًا عليًّا في هذا الكتاب، إذْ عُدَّتْ من جملة أخلاقه وفضائله التي دعا إليها وحثَّ على التزامها والتَّحلِّي بها، ويكفي للدِّلالة على أهميَّتها وبروزها أنْ ذُكِرت أكثرَ من مائةٍ وسبعين مرَّة بأساليبَ متنوِّعةٍ وسياقاتٍ مختلفةٍ ومدلولات تَخْلُصُ إلى أنَّ كلَّ ما يؤدِّي إلى الكفِّ عن المعاصي ومجانبة الفساد، أو إلى فعلِ الطَّاعات واتِّباع الرَّشاد فهو إصلاح.

فالإصلاح ـ ومنه الصَّلاح ـ كما يقولُ أهل اللُّغة والبيانِ: نقيضُ الإفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقُوبِلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئة.

فمِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ومِنَ الثَّاني قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢].

وممَّا يُشَرِّفُ الإصلاحَ ويجعله آيةَ الصَّلاح ودليلَ الفلاحِ أنَّ اللهَ تولاَّه بنفسه استحقاقًا وفضلاً، ونسبَه إلى نفسِه الكريمةِ صفةً وفعلاً، وحملَ عليه هذا الإنسانَ حثًّا وترغيبًا ليكون لرسالته أهلاً، فكان إصلاحُه له تارةً بخَلْقِه إيَّاهُ صالحًا، وتارةً بإزالةِ ما فيهِ منْ فسادٍ بعد وُجودِه، وتارةً بالحكم له بالصَّلاح كما قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: ٢]، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾ [يونس: ٨١].



ومن هُنا يتبيَّن مَدَى التَّلازُم الموجودِ بين الصَّلاح والإصلاح، وكلاهُما أَشَادَ بهما القرآنُ بحيث لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن الآخر؛ لأنَّ الصَّلاح يكون في النَّفس أوَّلاً ثم يتعدَّى إلى الإصلاح للنَّفس، وبوجُودهما تكتملُ الفضيلةُ ويؤولُ التَّغيير إلى استقامةِ الحال.

لكن في الإصلاح معنًى زائدًا على الصَّلاح، وهو ما يحصُل فيه منَ النَّفْعِ المتعدِّي بخلاف الصَّلاح الَّذي قد لا يتعدَّى النَّفع القاصر، وإن كان مِن لازمِه أن يُؤَدِّيَ إلى الإصلاح؛ لأنَّه ثمرةٌ له؛ ولذا قالوا: «الصَّالحون يبنون أنفسَهم، والمصلِحُون يبنون غيرَهم».

وقد جعل الله من مِنَنِه على المصْطَفَيْنَ من عباده إصلاحَ أعمالهم وتوفيقَهم لعمل الصَّالحات؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد: ٢].

وفي طليعةِ من أصلحَهم الله وجعلَهم أئمَّةً في الصَّلاح والإصلاح الرُّسلُ عليهم السَّلام، كما قال في حقِّ خليله إبراهيم: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال في حقِّ عيسى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦]، وقال في غيرهم: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥]، وقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

وإذا كانت مهمّةُ الرُّسلِ والأنبياءِ الإبلاغَ والإنذارَ وإقامةَ الحجَّة على النَّاس، فهي لا تخرج عن كونها مهمَّةَ إصلاحٍ وتغييرِ ما حلَّ بالأنْفُسِ والهمم، والشُّعوب والأُمَمِ من فسادِ التَّصوُّر والاعتقاد، وانحرافِ العبادة والسُّلوك، وسوءِ التَّعامل والتَّدبير، قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام في معرض قيامه بواجب النُّصح والتَّذكير لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، ولما اسْتَخْلَفَ نبيُّ الله موسى أخاه هارونَ عليه السلام في قومه أوصاه بقوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ولهذا رَبط الله في كثيرٍ من الآياتِ بين ذكر التَّوبةِ وذكرِ الإصلاحِ، ففي التَّوبة التَّخلُّص من الذنوبِ والمآثم، وفي الإصلاح السُّمُوُّ بالنَّفس إلى حيث الفضائلُ والمكارمُ، وفي هذا إشارةٌ إلى ما يعبِّر عنه العلماءُ بـ «التَّخْلِيَةِ وَالتَّحْلِيَةِ»؛ فكلُّ مُصْلِحٍ يبدأ بالتَّوبةِ للتَّطهير ورفعِ الأدناسِ، لينتهيَ إلى إحداث التَّغييرِ وإصلاحِ النَّاس، وفي هذا يقولُ الله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩]، ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٦].

ويقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: ١١٩].

وممَّا يدلُّ على فضيلةِ الإصلاح اتِّساعُ ميادينه ورحابةُ مجالاتِه، فَبِقَدْرِ ما تكثُر بين النَّاس المنازعاتُ، وترتفعُ في مجالسهم الخصوماتُ، ويتهدَّدُ بناءُ الأُسَرِ والبُيُوتَاتِ وتَسُوءُ علاقاتُ الأفرادِ والجماعاتِ، بقدرِ ما تكثُر ميادينُ الإصلاح وتتَّسِعُ حلولُه وتتعدَّدُ أساليبُه وطرقُه حتَّى إنَّه لَيَسَعُ النَّاسَ في دمائِهم وأموالهم وأقوالهم وأفعالهم وكلِّ ما يقعُ فيه الإفسادُ والاعوجاجُ وتَطولُه يَدُ البغيِ والإجرامِ.

إنَّه إصلاحٌ شاملٌ وعادلٌ يجمع بين متخاصِمين، ويقرِّب بين متباعدين، ويَمْحُو شحناءَ المتعادِيَين، يبدأ من الأهل وذَوِي الأرحامِ، ليعمَّ الأنسابَ والجيرانَ والخِلاَّن والإخوان إلى أن ينتهي بعموم الناس على اختلاف مشاربهم وطبائعهم بلا تخاذلٍ أو تهاونٍ، ودون تَعَلُّلٍ أو تَسويغ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٢٤] أي لا تَتَعَلَّلُوا بالأَيْمَانِ لتتركوا البِرَّ والتَّقوى والإصلاح بين الناس.

للإصلاحِ في الأسرة وبيتِ الزَّوجيةِ دورٌ في الحفاظ على كَيَانِهَا وأفرادِها قبل اسْتِعْصَاء الحلول وتفاقُمِ المُشكِلاتِ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وله بين أصحابِ الحقوق في الوصايا والأوقاف



والولاياتِ إسهامٌ في حفظِ عقودِهم ومعاملاتهم ورعاية شؤُونهم وصَوْنِها من الجَوْرِ والانحراف ومن تعرُّضِها للإهمال والضَّياع، قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾[البقرة: ١٨٢]، وقال في شأن اليتامى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وأمَّا في نطاق جماعةِ المؤمنين وطوائفِ المسلمين فَلَهُ سُلْطَانُ الحُكْمِ عليهم وإلزامُهم بما يحفَظ عليهم وِئَامَهُمْ ويقوِّي أَوَاصِرَهُم ويدفعُهم إلى تقوى الله وطاعته كما في قوله في مطلع سورة الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

وحتّى في الحالات الشَّاذَّة التي قد يصل فيها الأمر إلى التَّقاطع والتَّدابر؛ بل إلى التَّقاتل والتَّناحُرِ، فإنَّ الله نَدَب إلى الإصلاح لما فيه من قطع السَّبيل على الأعداء، وحفظِ الأموال وحَقنِ الدِّماء، فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحجرات: ٩].

وإذا كان إفسادُ ذاتِ البَيْنِ يَحْلِقُ الدِّينَ، ويُذْكِي العَدَوات ويفرِّق بين الأحباب ويزيل ودَّ الأصحاب، فإنَّ إصلاحَ ذاتِ البَيْنِ يُذهب وَغَرَ الصَّدْرِ، ويَلُمُّ الشَّمْلَ، ويعيدُ الوِئامَ ويُصلِح ما فَسَد على مَرِّ الأيَّام، فهو لهذا مَبْعَثُ الأمنِ والاستقرار، ومَنْبَعُ الأُلْفَةِ والمحبَّة، ومصدرُ الهدوء والاطمئنان، وآيةُ الاتّحاد والتكاتف، ودليلُ الأخوَّة وبرهانُ الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

وللإصلاح في كتاب الله فِقْهٌ لا بدَّ أن يُفهم ويُسمع، ومَسلكٌ يَجِبُ أن يُقْتَفَى ويُتَّبَعَ وإلاَّ آلَتْ جهودُ المُصلحين إلى الفشل، وعَجزت مساعيهم عن إصلاح العَطَلِ أو تَدَارُكِ الخَلَلِ، وأوَّل ما ينبغي العمل به في أوَّل خطوة من خطوات التَّغيير والإصلاح، تصحيحُ النيَّة وتسخيرُ القصدِ لابتغاء مرضاةِ الله وحدَه، وتجنُّبِ الأهداف الشَّخصية والأغراض الدُّنيوية الزَّائلة، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

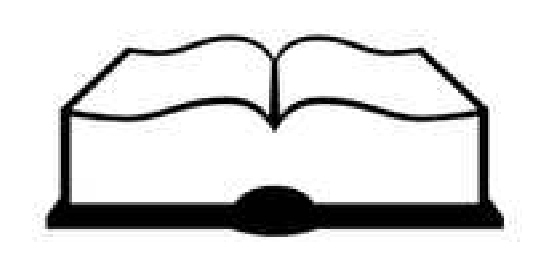
وهذا فقهٌ في الإصلاح دقيقٌ؛ لأنَّ فَشَلَ كثيرٍ منْ مَسَاعِي الصُّلْحِ فَبِسَبَبِ تَسَرُّبِ الأخبارِ وفُشُوِّ الأحاديث وتَشْوِيشِ الفُهُوم ممَّا يعكِّر أجواء الاتِّصال، ويقضي على رُوح المبادرةِ والامتثالِ.

والحاصل أنَّ للإصلاح في القرآن ميدانًا رَحبًا، تضيقُ الخُطَبُ والمقالاتُ عن سَرْدِهِ وتناوله، ويكفيه شرفًا وفضلاً أنَّ كلَّ ما أدَّى إلى الطَّاعة وامتثال الأمر والتمسُّك بالكتاب فهو إصلاحٌ والمتحلِّي به هو من المُصْلِحِين ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وأنَّ المُصلِحَ يكون في نجاةٍ وأَمْنٍ ونعمةٍ إذا حلَّ بالمفسدين العقابُ والخوفُ والنِّقْمَةُ، ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾** ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

وأنَّه لا صَلاح ولا إصلاح يُعيد للأمَّة الإسلاميَّة اليومَ ما فَقَدَتْهُ من عزِّ الأخلاقِ وسُمُوِّ المنزلةِ وشَرَفِ السُّؤْدَدِ إلاَّ بما صَلَحَ عليه الأوَّلون من رجالاتها وأبنائها، ونسائها وبناتها.

فاللَّهم أصلحْ للمسلمين أحوالَهم وخُذْ بأيديهم إلى مَرَاتِعِ الصَّلاح، ووفِّقهم لسلوك سبيل الإصلاح في كلِّ ما يأتون ويَذَرون ويقولون ويفعلون إنَّك وليُّ ذلك والقادر عليه.





إصلاح ذات البين في السنة النبوية

عثمان عيسي

لقد تَنَوَّعت ميادينُ الإصلاح في الشَّريعة الإسلاميَّةِ السَّمْحَةِ، من إصلاحِ النَّفسِ باطنًا بالإيمان الصَّحيحِ، والمعتقدِ السليمِ، وتقويمِ السُّلوكِ والخُلُقِ ظاهرًا كما جاء في عنوانِ الرِّسالة النَّبويَّة وشعارِها: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ**»، وتقويمِ المنْطِقِ بميزان البَيَانِ حِفاظًا على اللِّسانِ، إذِ الكلمةُ أصلُ عقيدةِ أهلِ الإيمان، فَأَطْيَبُها كلمةُ التَّوحيد، وأَخْبَثُهَا كلمةُ الشِّرك، وقد رَاعَتِ الشَّريعةُ إصلاحَ الفردِ والمجتمعِ على حدٍّ سواء، إذْ لا مجتمعَ للنَّاس إلاَّ بمجموع أفراده، وإنَّ صلاحَ المجتمع مَبْنِيٌّ على صلاح الفرد وأهليَّته لِتَحَمُّلِ الأمانة وأدائها، ولا مجتمعَ صالحاً إلاَّ بتوحيدٍ خالصٍ من أفراده لربِّ العالمين، وأخوةٍ صادقةٍ لا يُكَدِّرُ صفوَها شيءٌ، قائمةٍ على أساس المودَّة والرَّحمة والتَّناصح والتَّناصر.

هذا، وقدِ اهتَمَّ الإسلامُ بالإصلاح اهتمامًا بالغًا، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بِذَاتِ بَيْنِ المسلمين، فكان في حدِّ ذاتِه مقصدًا من مقاصده الكبرى، وغايةً من غاياته المثلى، جسَّد هذا الإصلاحَ النبيُّ ﷺ في واقع حياته، وبِهَدْيِه القَوْلِيِّ والعَمَلِيِّ، مع الصَّحابة الكرام ﭫ فحرص كلَّ الحرصِ على إيصالِ كلِّ نفعٍ حسيٍّ ومعنويٍّ لهم، ودفعِ كلِّ ضَرَرٍ وأذى عنهم، فنهاهم عن الاختلاف والتَّفرُّق والتَّشَتُّتِ، وأَمَرَهم بالبعد عن كلِّ أسباب الخصومة والعداوة والبغضاء، وقَطْعِ دابرِ الهجران والكفران، بأنواع شتَّى وطرقٍ متنوِّعة فاضتْ بها السُّنَّة النَّبويَّةُ العَطِرَةُ، وذلك كلُّه رحمةً منه ﷺ ورأفةً بالخلق، واستجابةً للخالقِ جلَّ وعلا الآمرِ بالاجتماعِ والوِفاقِ.

ولما كان المرءُ معرَّضًا للفتنِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، ومبتَلًى بما يلقاهُ في المخالطةِ والمعاشَرةِ من البَغي

والأَثَرَةِ، ولَمَّا كانتْ طبيعةُ الإنسانِ كما خُلق، وتركيبةُ نفسِه كما فُطر، تقتضي ـ من حيثُ الواقعُ ـ حبَّهُ الاستئثارَ بالأشياء، وانفرادَه بها عن غيره، لم يُغفلِ الإسلامُ هذا الجانبَ من طبيعةِ النَّفسِ البشريَّةِ، بل راعى في معالجتها ومداواتها النّقصَ الموجودَ فيها، والضّعفَ المتمكّنَ منها؛ ضعفٌ من آثاره: سرعةُ الانفعال، وشدّةُ التّأثُّر، واضطرابٌ عند زوال ما تَلَذُّهُ النفسُ وتشتَهِيه، أو تَوَهُّمِ ذهابِهِ وفَواتِه، وما يقع لها من قِلَّة حلمٍ مع الغَرِيمِ منَ المعَاشَرين والمشارَكين، ـ مما لا يكاد يَسْلَمُ منه أحدٌ ممَّن لابَسَ النَّاسَ وخالطهم باستثناءِ قليلٍ من المؤمنين حقًّا، والعاملين الصَّالحات صِدقًا ـ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وَمَرَدُّ ذلك إلى الشُّحِّ المُطَاعِ، والهوى المتَّبَعِ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشُّحُّ: هَوَاهُ في الشَّيء يحرص عليه»[1].

فلمَّا يَرْسُمُ المرءُ لنفسه حقوقًا يحرص عليها، يريد استيفاءَها كاملةً غيرَ منقوصةٍ، ويحمي لجنابِها حِمًى يُعَادِي مَن تعدَّاهَا وتجاوزَها، ولا يسامح فيها ولا يتنازل عنها يقعُ الخَلَلُ، ويَنْجُمُ الزَّلَلُ، فتَبْدُو حينئذ النَّفسُ خائفةً، قد هَلَعَ صاحبُها وجَزَعَ إذا مسَّه الشَّرُّ، واجْتَحَفَ مُستَأثِرًا ومَنَع إذا مسَّه الخيرُ، يبحث عن أوَّلِ فُرصةٍ لقطْعِ حَبْلِ الوِصَالِ، بذريعةِ الاختلاف مع غيره في نَفِيسٍ غالٍ أو في عِقال، أو بسببِ تَأَثُّرٍ بسوءِ أقوالٍ أو فِعال... ومن لوازم ذلك؛ وقوعُ التَّعادِي والتَّباغضِ والتَّدابرِ والتَّنافرِ والتَّقاطعِ، بل والتَّقاتل بين النَّاس، وقد حُرِّم عليهم ونُهوا عنه؛ فيضيق حالُهم، ويَنْكَسِف بالُهم.

ولم تَخْلُ سنَّةُ نبيِّنا ﷺ من دعوةٍ إلى الإصلاح وحثٍّ عليه، وبيانٍ لوسائله وسُبُلِهِ، ومن تَنَسَّمَ وحيَ السُّنَّةِ العَطِرَةِ، وتَدَثَّرَ بدثَارِهَا، وأعمل الفكرَ في استنباط الأحكامِ منها والحِكَمِ، واستخراجِ الإرشادات والقِيَمِ، والْتِمَاسِ المواعظِ والعِبَرِ، وَفْقَ منهجٍ دقيقٍ سليمٍ، وتأصيلٍ راسخٍ قويم، أدرك ذلك بيقين، فقد جاء الأمر بإصلاح ذات بين المؤمنين، ورأب صَدْعِهِمْ، وسلِّ سَخَائِم قلوبهم، والتَّأليفِ بينهم، وَلَمِّ شعثِهم، وجمعِ شملِهم، وتوحيدِ كلمتِهم، هذا كلُّه ممَّا قام به النَّبي ﷺ بين الصَّحابة رضي الله عنهم حقَّ القيام، مُسْتَهْدِيًا اللهَ جلَّ في علاه، ومستعينًا بربِّه ومَوْلاَهُ، مع عِظَمِ الرِّسالةِ، وثِقَلِ الأمانةِ، أمانةِ الهدايةِ والبيان، والمجاهدةِ



باللِّسانِ والسِّنان، أمانةِ تربيةِ الصَّحابةِ التَّربيةَ الإيمانيَّةَ، ورعايةِ شؤونهم حقَّ الرِّعاية، قال اللهُ جلَّ وعَلا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] قال مجاهد: «هُو أبٌ لهم»(٢)، ومصداقُ ذلك قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ**»(٣) الحديث.

أي: «في الشَّفقة والحُنُوِّ... وفي تعليم ما لا بُدَّ منه»(٤).

ومن شأنِ المصْلِحِ أنْ يقومَ بالإصلاح بنفسه، ويقوِّمَ بالإصلاح غيرَه، ولا يُوكِلُ مُهِمَّةَ ذلك لمن خلفَه، أو يتَّكِئُ للقيام بهذا الواجبِ على من بعدَه، بل يسعى بنفسِه، بشدَّة ساقَيْهِ وذراعَيْه، لإصلاح الدَّانِي والقاصِي، سعيًا مدفوعًا بإخلاصٍ لله تعالى وإرادةٍ لوجهِهِ الكريم، ورغبةٍ في ثوابه، وهمَّةٍ ونشاطٍ واندفاعٍ بحقٍّ وللحقِّ، وسعيٍ بحَزْمٍ على بصيرة، وقد عبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ في حديثِ الصَّدقاتِ عن شيءٍ من ذلك فقال «...**وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ المُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**...»(٥).

والمرْءُ ـ عادةً ـ يستغيثُ بخاصَّتِه وأهل ثِقَتِه، ويرجو الإعانةَ منهم، ومن أمثالِ العربِ: «إلى أُمِّه يَلْهَفُ اللَّهْفانُ»، والَّذي يريد الإصلاحَ ويَصْبُو إليه، يَنْتَظِرُ مثلَ هذه الإغاثةِ ويَأْمَلُها من أصحابها الصَّالحين المُصلِحين، من العلماء الرَّبَّانِيِّينَ، وطلبةِ العلمِ الموَثَّقينَ، الّذين يَدْعُون الخلقَ إلى التَّوحيد الخالص، ويُبَدِّدُون ظلماتِ الشِّرك والوثنيَّة، ويربُّون النَّاسَ على السُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ المحمَّديَّة، ويمحُون آثارَ المحدثات البدعيَّة، حاملين رايةَ الإصلاح خَفَّاقَةً شَامِخَةً، راجين من الله تعالى لدعوتهم النَّجاحَ، وللعبادِ جميعًا الفلاحَ.

ومن هذا الإصلاحِ المرجُوِّ، إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، وهو جُهْدٌ وعملٌ لا غِنَى لجماعة المسلمين عنه، فحاجتُهم إليه وإلى من يقُوم به من المخلِصين، شيءٌ يُدْرِكُه مَن يعلم مقدارَ الثَّلْمِ الذي يُحدِثُه الفسادُ والإفسادُ بين المسلمين، ويعلمُ مقدارَ الشَّرخِ الكائنِ في الأمَّة بسبب الأدواء والأهواء المفرِّقَةِ لها، والقاضيةِ عليها وعلى وحْدَتِها، من أسباب التَّنازع ومُوَرِّثَاتِ الفَشَلِ وذهابِ الهيبةِ، ممَّا يُوهِنُ أمرَ الأمَّةِ في الدَّاخل، ويوهنُ شأنَها في الخارج مع غيرها من الأمَمِ الأخرى، قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

والمخلصُ منِ المصْلِحين يَمْتَثِلُ أمرَ الله ورسولِه

في إصلاحه للمجتمع، وإصلاحِ ذاتِ بَيْنِ المسلمين، لا يَخرُجُ عن سُنَنِ التَّغيِيرِ الشَّرعيَّةِ، ويُوَظِّفُ ما في يده من وسائلَ دعويَّةٍ(٦) لهذا المَقْصَدِ النَّبيلِ، ويستحضرُ معيَّةَ الله الخاصَّةِ لعباده الصَّابرين على المأمور والمحظورِ والمَقْدُورِ، فهي معيَّةٌ مُتَضَمِّنَةٌ إعانةَ الله جلَّ وعلا لمن حقَّقَ طاعتَه وطاعةَ رسولِه ﷺ.

هذا، وإنَّ أَوْلَى النَّاس بإصلاح ذات بَيْنِهم؛ الوالدان؛ فيحرِصُ المرءُ على أن يكونَ واصلاً لوالديه، مُوصِلاً لأحدِهما بالآخر، وهكذا الأمرُ مع الزَّوجين، والأقاربِ من العَصَبَةِ وذوي الأرحام، والجيرانِ لعِظَمِ حقِّهم في الإسلام، وسائرِ المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات...

وإصلاحُ ذات البَيْنِ، يقتضي ـ في كثير من الأحيان ـ تَنَازُلاً منَ المرءِ، فيما ليس بواجبٍ ديانةً، مطاوعةً منه لإخوانِه، مع سِعَةِ صدْرٍ وحُسْنِ ظَنٍّ، ليرى ثمرةَ إصلاحِه في الدُّنيا قبل الآخرة، ومن أعظم ثمراتها السُّؤددُ بحقٍّ، إذِ السُّؤددُ والرِّفعةُ إنَّما تكون بالعلمِ والعملِ والتَّعليمِ والإصلاحِ(٧) والصَّبرِ والثَّباتِ، وقد جَعَلَ النبيُّ ﷺ من فضائل الحسنِ بن علي رضي الله عنهما إصلاحَه بين أهل العراق وأهل الشَّام، ومَدَحَه على ذلك وأثنى عليه(٨) ممَّا يدلُّ على أنَّ الإصلاحَ بينهما ممَّا يحبُّه ويرضى عنه ويحمدُه اللهُ ورسولُه ﷺ، مع أنَّ الحسنَ رضي الله عنه نَزَلَ عن الأمر وسلَّمه إلى معاويةَ بنِ أبي سفيان رضي الله عنه عام ٤١ هـ، فَسُمِّيَ عام الجماعة لاجتماعِ النَّاسِ على معاوية رضي الله عنه، واجتماعِ كلمةِ المسلمين، وزوالِ الفتنةِ بينهم.

فكان إصلاحُ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما بالتَّنازل عن الأمرِ ومصالحةِ غيره، ـ وما دون شأنِ الوِلاية أَهْوَنُ وأَيْسَرُ ـ، فنالَ رضي الله عنه ـ بتنازُله هذا ـ سيَادَةً إلى سيادَتِه الَّتي كان عليها، قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(٩)، وعند أحمد: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(١٠).

والملاحَظُ في هذا الحديث أمرانِ:

١ ـ ذكرُ النَّبيِّ ﷺ لسِيادة الحَسنِ رضي الله عنه وهو لا يَزَالُ طِفْلاً صغيرًا يلعبُ، قال الْحَسَنُ: (وهو البصري)(١١): «وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ جَاءَ الْحَسَنُ(١٢) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ،...**» الحديث.

٢ ـ إيماءُ النَّبيِّ ﷺ للعلَّةِ وهي الإصلاحُ بين الطَّائفتين العظيمتين؛ فَعُلِمَ منه أنَّ إصلاحَ ذاتِ بَيْنِ المسلمين سببٌ في السُّؤددِ والرِّفعةِ، وأنَّه من



الأعمال التي يحبُّها اللهُ ورسولُه ﷺ، وأنَّ فيه الخيرَ كلَّ الخيرِ، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، فحصل المقصودُ وبالله التَّوفيق.

قال الحافظ ابنُ حجر في «الفتح» (١٣/ ٨٤):

«قال المهلَّبُ: الحديثُ دالٌّ على أنَّ السِّيادةَ إنَّما يستحقُّها من يَنْتَفِعُ به النَّاسُ، لكونِه علَّق السِّيادةَ بالإصلاح» اهـ.

وأيُّ منفعةٍ أرجى للمسلمين من حَقْنِ دمائِهم، وتأمينِ رَوْعَاتِهم، والحفاظِ على ضروريَّاتِ معاشِهم، ومَنْ حقَّق لهم ذلك ـ ولو بالتَّنازل عن الأمر ـ كان سَيِّدًا عند الخلْقِ، وأحبَّهم عند الخالِقِ، كما قال ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إلى الله تعالى أَنْفَعُهُم لِلنَّاسِ...**»[١٣] الحديث.

ولهذا كان إصلاحُ ذاتِ بَيْنِ المسلمين وصلاحُ حالِهم، أفضلَ من درجةِ الصِّيام والصَّلاة والصَّدقة، وذلك لما فيه من حُسْنِ المعاشرة والمناصحةِ والتَّعاون على البِرِّ والتَّقوى، وكان من أفضلِ الصَّدقاتِ التي يحبُّ اللهُ ورسولُه ﷺ مَوضعَها، ومن أنفعِ التِّجارةِ بين العبدِ وربِّه، كما قال رسولُ الله ﷺ لأبي أيُّوبَ رضي الله عنه: «**أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى تِجَارَةٍ؟**»، قال: بلى؛ قال: «**صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَقَرِّبْ بَيْنَهُم إِذَا تَبَاعَدُوا**»[١٤].

وصِلَةُ النَّاسِ بعضِهم ببعضٍ إذا تَفَاسَدُوا، والتَّقريبُ بينهم ـ بالشَّرعِ الحنيفِ ـ إذا تَبَاعدوا، يستدعي وجودَ قَصْدٍ سليمٍ، ونيَّةٍ صالحةٍ صادقةٍ، إذْ لا يُوفَّق للإصلاح بين النَّاس إلاَّ من صَفَتْ سَرِيرَتُهُ، وحَسُنَتْ طَوِيَّتُه، قال اللهُ جلَّ وعلا في الصُّلحِ بين الزَّوجين: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾: «هُما الحَكَمان»[١٥].

وقال مجاهد: «أمَا إنَّه ليسَ بالرَّجلِ والمرأةِ، ولكنَّه الحَكَمان».

ومعنى الإرادةِ المذكورةِ في الآية: «خلوصُ نِيَّتِهِمَا (المصْلِحَيْن) لصَلاَحِ الحالِ بين الزَّوجين»[١٦].

وهذا يدلُّ على أنَّ صَلاحَ نِيَّةِ الحَكَمَيْنِ له أثرٌ في التَّوفيق بين الزَّوجين، وقد وَجَدْتُ كلامًا للشَّيخ محمَّد الطَّاهر بنِ عاشُور في بيانِ وتقريرِ هذا المعنى، قال ـ رحمهُ الله ـ: «وقولُه تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾: الظَّاهرُ أنَّه عائدٌ إلى الحَكَمَيْنِ؛ لأنَّهما المسُوقُ لهما الكلامُ، واقتصَرَ على إرادةِ الإصلاحِ؛ لأنَّها الَّتي يجبُ أن تكونَ المقصدُ لوُلاَةِ الأمور والحَكَمَيْنِ، فواجبُ الحَكَمَيْنِ أن ينظرَا في أمرِ الزَّوجين نظرًا

مُنْبَعِثًا عن نيَّةِ الإصلاح، فإنْ تَيَسَّرَ الإصلاحُ فذلك، وإلاَّ صارَا إلى التَّفريقِ، وقد وعدَهُما اللهُ بأنْ يُوَفِّقَ بينهما إذا نَوَيَا الإصلاحَ، ومعنى التَّوفيقِ بينهما؛ إرشادُهما إلى مصادفةِ الحقِّ والواقعِ،...»[١٧] اهـ.

هذا كلُّه في الإصلاح بين الزَّوجين، فكيف بالإصلاح بين النَّاسِ فيما هو أعظمُ شأنًا من بُضْعِ امرأةٍ! ـ كشأنِ الدِّماءِ ونحوِها ـ، فصلاحُ النِّيَّةِ في ذلك أَوْلَى وأَوْلَى، ولهذا لَمَّا ناظرَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما الخوراجَ، استدلَّ عليهم بهذه الآية الكريمة، وذلك في مسألة التَّحكيم المعروفةِ، فكان ممَّا قال رضي الله عنه:

«وفي المرأةِ وزوجِها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾[النساء: ٣٥]، فنشدتُكم بالله[١٨] حُكمَ الرِّجالِ في صلاحِ ذاتِ بينِهم وحقنِ دمائهم أفضلُ من حكمهم في بُضعِ امرأةٍ؟...»[١٩].

فإصلاحُ ذاتِ بَيْنِ المسلمين أكبرُ عندَ الله، وأعظمُ حرمةً من الإصلاح بين الزَّوجين؛ لأنَّ الإصلاحَ سببٌ لِلاعتصام بِحبلِ الله وعدمِ التَّفَرُّقِ بين المسلمِين، كما أنَّ فسادَ ذَاتِ البَيْنِ ثُلْمَةٌ في الدِّينِ، قد سَمَّاه النبيُّ ﷺ الحالِقَةَ الَّتي تحلِقُ الدِّينَ، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟»؛** قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: **«صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ»**[٢٠]، وقد جاء تفسيرُ الحالقةِ مرفوعًا من قول النَّبيِّ ﷺ: **«لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»**[٢١].

قال البَاجِي: «قال الأَخْفَشُ: أصلُ الحَالِقَةِ من حَلَقَ الشَّعْرَ، وإِذَا وَقَعَ الفَسَادُ بَيْنَ قومٍ مِنْ حَرْبٍ أَوْ تَبَاغُضٍ حَلَقَهُمْ عَنْ البِلَادِ؛ أَيْ: أَجْلَتْهُمْ وفَرَّقَتْهُم حَتَّى يُخْلُوهَا، وَيُحْتَمَلُ عِنْدِي أَنْ يُرِيدَ أَنَّهَا لَا تُبْقِي شَيْئًا مِنْ الحَسَنَاتِ حَتَّى يَذْهَبَ بِهَا كَمَا يَذْهَبُ الحَلْقُ بِالشَّعْرِ مِنْ الرَّأْسِ حَتَّى يَتْرُكَهُ عَارِيًا» اهـ[٢٢].

فَعُلِمَ منَ الحديثِ أنَّ فسادَ ذاتِ الدِّين تحلق الدِّينَ وتهْلِكُه، وتسْتَأْصِلُه كما يَسْتَأْصِلُ الموسَى الشَّعْرَ، وذلك لكثرةِ ما يترتَّب عليه من الفساد والضَّغائنِ، وكثرةِ ما يُسَبِّب من العداواتِ، وتَشْتِيتِ القلوبِ وَوَهَنِ الأديانِ، وتسليطِ الأعداء وشَمَاتَةِ الحُسَّادِ، فلذلك صار مقابلُه ـ إصلاحُ ذات البَين ـ أفضلَ الصّدقاتِ[٢٣].

ونَيْلُ درجةِ الصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدقةِ بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ، مَشروطٌ فيه قيامُه على العِلم والعدلِ المصحوبَيْن بالقصدِ الحَسنِ، قال شيخُ

الإسلام ابنُ القيِّم: «فالصُّلحُ الجائزُ بين المسلمين هو الَّذي يُعْتَمَدُ فيه رِضَى الله سُبحانه ورضَى الخصْمَيْنِ، فهذا أعْدَلُ الصُّلحِ وأَحقُّه، وهو يَعْتَمِدُ العلمَ والعدلَ، فيكونُ المُصْلِحُ عالما بالوقائعِ، عارفًا بالواجبِ، قاصدًا للعدلِ، فدرجةُ هذا أفضلُ من درجةِ الصَّائم القائم...»[٢٤]؛ وهذا سِرٌّ بَديعٌ في فقه الإصلاحِ، واللهُ الموفِّقُ لا ربَّ سِواه.

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما بسند حسن. انظر: «التفسير المختصر الصحيح» (ص١١٤).

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس في «تفسيره» بسند صحيح. انظر: «التفسير المختصر الصحيح» (ص٤٤٩).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٨). ط/ بيت الأفكار الدولية.

(٤) «فيض القدير» للمُناوي (٢/ ٧٢٣).

(٥) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (رقم ٢١٨١٦). ط/ بيت الأفكار الدولية.

(٦) وهي وسائلُ تَوْقِيفِيَّةٌ لا تُستبدل بغيرها بزعم «المصلحة الدعوية»!

(٧) انظر تأصيلاً نفيسًا في «نَيْلُ السُّؤدَدِ بالعلم»؛ للأخ الشيخ عبد المالك رمضاني في كتابه «سِتُّ دُرَرٍ من أصولِ أهل الأثر» (ص٧٧)، طبعة منار السبيل/ عام ١٤٢٢هـ.

(٨) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ١٩٤) و(٣/ ٥٥٦) بتصرُّف.

(٩) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) وغيره.

(١٠) في «المسند» (رقم٢٠٧٢١). ط/ بيت الأفكار الدولية.

(١١) كما استظهر ذلك الحافظُ في «الفتح» (١٣/ ٨٢ـ ٨٣).

(١٢) وعند البيهقي في «دلائل النبوة»: «...إذْ جاء الحسن ابنُ عليٍّ فصعدَ المنبرَ».

(١٣) حسن: رواه الأصبهاني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٥٩/ ٢٦٢٣) و«السِّلسة الصَّحيحة»: (٩٠٦).

(١٤) حسن لغيره: رواه البَزَّار، انظر: «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣/ ٤٥/ ٢٨١٨).

(١٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما بسند حسن.

(١٦) «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ١٣٩).

(١٧) تفسير «التَّحرير والتَّنوير» (٥/ ٤٧).

(١٨) يقول هذا ابنُ عباس رضي الله عنهما مخاطبًا الخوارج.

(١٩) أَثَرٌ صحيح، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٥٧/ ١٨٦٧٨)، وأخرج بعضَه أحمد في «المسند» (رقم٦٥٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣١٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٥٧/ ١٠٥٩٨)، وغيرهم، قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: إسناده حسن. وانظر: «مناظرات السَّلفِ» (ص٩٥) للشَّيخ سليم الهلالي.

(٢٠) صحيح: رواه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩) ط/ بيت الأفكار الدولية.

(٢١) حسن لغيره، انظر: «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣/ ٤٤/ تحت رقم ٢٨١٤) و«غاية المرام» (٤١٤).

(٢٢) «المنتقى» (٤/ ٢٩١).

(٢٣) «فيض القدير» (٣/ ١٣٧) بتصرف.

(٢٤) «إعلام الموقِّعين»: (١/ ١٠٩ ـ ١١٠).



دعوة التَّوحيد هي دعوة الحقِّ

عبد المالك رمضاني

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد: ١٤].

روى ابن جرير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦) عن عليّ بنِ أبي طالبٍ أنَّ دعوةَ الحقِّ في الآية هي التَّوحيد، ورواه أيضًا عن ابن عبَّاس وقتادة وابن زَيْدٍ، ويمكن أن يُراجع له «تفسير عبد الرَّزَّاق» (٢/ ٣٣٤) و«الدُّعاء» للطَّبراني (١٥٨٠ ـ ١٥٨١)، و«الفوائد المنتقاة عن الشُّيُوخ العوالي» لأبي الحسن الحربي (٨٦) و«الأسماء والصِّفات» للبيهقي (٢٠٤).

وهذا التَّفسير السَّلَفِيُّ المختارُ واضحُ المعنى من جهتين:

الأولى: السِّياق؛ فإنَّ ما بعده يدلُّ عليه على وجه المقابلة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية.

الثانية: أنَّ كلَّ دعوةٍ لم تُؤَصَّلْ على التَّوحيد ولم تؤسَّسْ عليه فلا نَفْعَ فيها ولا ثبوت لها ولا قرار في الدُّنيا، ولا أجرَ فيها يوم القيامة، ولو لم يكن فيها إلاَّ مخالفة جميع الرُّسل لكفى به إثمًا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي هذا أبلغُ واعظٍ للدَّعوات التي لا تَهْتَمُّ بالتَّوحيد أوْ لا تركِّز عليه، فكيف بدعوةٍ تجهل التَّوحيد من أصله ولا تفرِّق بين التوحيد والشِّرك؟! فكيف بدعوةٍ تحارب التَّوحيدَ وأهلَه؟!

وكم همُ الَّذين لم تَنْشَرِحْ صدورُهم لهذه الدَّعوة المباركة؛ بزعم أنَّ الدَّعوة إلى التَّوحيد تُنَفِّر النَّاس عن الدِّين، أو أنَّ النَّاس يَمَلُّون خِطابَها ولا ينفعلون معها، وأنَّ الحكمةَ تقتضي من صاحبها



تأجيلها، وهؤلاء يخطِئُون خطأً فاحشًا؛ لأنّهم بهذا يَطْعَنُونَ على دعوةِ الأنبياءِ من حيثُ لا يشعرون، ومنه جعلُ الأنبياءِ غيرَ حكماءِ!!!

وإنَّه لمن حُسْنِ الاختيارِ أن تُسمِّيَ بعضُ المؤسَّساتِ التعليميَّةِ الكلِّيَّةَ المختصَّةَ بالعقيدة: كليَّة الدَّعوة؛ لأنَّ الدَّعوة إلى معتقد السَّلف الصَّالح من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسانٍ هي أصلُ الدَّعوةِ ورَكِيزَتُها الأُولَى، ومَهْمَا دَعَتِ الجماعات والجمعيَّات ـ فضلاً عن الأفراد ـ إلى الأبواب الأخرى من علوم الدِّين، فإنَّ عملَهم لا يُعدُّ شيئًا، حتَّى يُعْنَوا بحقِّ الله عزَّ وجلَّ الّذي هو أن يُفْرَدَ سبحانه بالعبادة لا تأخذُهم في ذلك لَوْمَةُ لائِمٍ، مُقَدِّمِينَ حقَّ الله على جميع الحقوقِ، ومقتدين في ذلك برُسل الله عزَّ وجلَّ، متيقِّنين بأنَّ هديَهم هو أكملُ هدي، وأنَّ السُّبل الدَّعويةَ الأخرى مهما كَثُرَ أَتْبَاعُها وتمكَّن أشْيَاعُها فإنَّما هي تزيينٌ من الشَّيطان، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨]، مُدرِكين بأنَّ تجَمْهُر الناس حولَ خُطبِهم الرَّنَّانَةِ الغنيَّةِ من كلِّ شيءٍ سوى التَّوحيدِ والسُّنَّةِ، ما هُو إلاَّ فِتْنَةٌ لهم؛ كما في سورة الأنبياء: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١١١] وأنّ جمالها كجمال حسناءٍ تُوشك أن تسيءَ الجِوارَ، وتُوحشَ الدِّيارَ.

وقد ذكر الله في كتابه وصيَّةَ لقمانَ لابنه، وذكر أنَّ أَوَّلَ شيءٍ وعَظَهُ به هو التَّحذيرُ من الشِّرك، فقال: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣]، وذكر عزَّ وجلَّ أنّه آتى لقمانَ الحكمةَ، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، وبعض الدَّعوات تدَّعي أنَّ تأجيلَ الحديث عن التَّوحيد والشِّرك هو الحكمةُ؛ بحجَّة أنَّ مخالفة ما ادَّعَوْهُ يُنَفِّرُ النَّاس الَّذين اعتادُوا بعضَ الطُّقُوس الشِّركيَّة!! وقارِئُ هذه الآية الكريمة لو صدَّقهم فيما ادَّعَوه لرمى لقمانَ الحكيمَ بمجانبةِ الحكمة، ولَطَعَنَ على كتاب الله من حيثُ لا يشعر، فاللهُ يصفُ الدَّاعي إلى التَّوحيد؛ بل البَادِئَ به بالحكمة، وهم يخالفُون ذلك! فليكن هؤلاء المخالفون لحكمةِ لقمانَ أوَّلَ المستفيدين من هذه الموعِظة، وسيِّدُ الحكماءِ رسولُ الله ﷺ يقولُ لمعاذ بن جبل ﷺ لمّا أرسله إلى اليمن داعيًا: «**إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ**

افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ». متَّفق عليه من حديث ابن عبَّاس.

ألاَ ـ أيُّها المتصدُّون لدعوة النّاس! ـ كونوا متَّبعين لا مُبْتَدِعين، وعظِّموا حقَّ الله تَعْظُمُوا في عَيْنِ الله، ولا يَغُرَّنَّكُم تصفيقُ أتباعِكُم، وكثرةُ أشياعِكم، وجرُّ أذيالِكم؛ فإنَّهم لن يغنوا عنكم يوم القيامة من الله شيئًا، ولن تنجح دعوتُكم أبدًا ما أعرضتُم عن دعوة الحقِّ، وكلُّ تجربَة دعويَّة ترونَها جميلةً لَمَّاعةً، وللجماهير جمَّاعةً، وللقلوب ميَّالةً، وللدُّموع سيَّالةً، فلا تسلِّموا لها حتَّى يكونَ عليها برهانٌ من صاحب الشَّريعة؛ فإنَّ الدَّعوة ـ كغيرها من مهمَّات الدِّين ـ لا تكون إلاَّ بإذنٍ من الله وتشريعِه، لا التَّجارِب والعواطف والاستجابة لرغبات العوامِّ.

قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦١ ـ ١٦٤): «ودعوتُه إلى الله هي بإذنه، لم يشرع دينًا لم يأذَن به الله؛ كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾** ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]، خلاف الّذين ذمَّهم في قوله: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١]، وقد قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾** ﴾ [يونس: ٥٩].

وممَّا يبيِّن ما ذكرناه أنَّه سبحانه يَذْكُرُ أنَّه أمرَه بالدَّعوة إلى الله تارةً، وتارةً بالدَّعوة إلى سبيله، كما قال تعالى: ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾** ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ وذلك أنَّه قد عَلِمَ أنَّ الدَّاعيَ الَّذي يدعو غيرَه إلى أمر لابدَّ فيما يدعو إليه من أمرين: أحدهما: المقصودُ المرادُ، والثَّاني: الوسيلةُ والطَّريقُ الموصلُ إلى المقصود، فلهذا يَذْكُر الدعوةَ تارةً إلى الله، وتارةً إلى سبيله، فإنَّه سبحانه هو المعبود المرادُ المقصود بالدَّعوة... وذلك يتعلَّق بتحقيق الألوهيَّة لله وتوحيده وامتناع الشِّرك، وفساد السَّموات والأرض بتقدير إلهٍ غيره، والفرق بين الشِّرك في الرُّبوبيَّة والشِّرك في الألوهيَّة، وبيان أنَّ العباد فُطِرُوا على الإقرار به ومحبَّته وتعظيمه، وأنَّ القلوب لا تصلح إلاَّ بأن تَعبدَ اللهَ وحده، ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذَّة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك وتحقيق الصِّراط المستقيم؛ صراط الَّذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وغير ذلك ممَّا يتعلَّق بهذا الموضع الّذي في تحقيقه تحقيقُ مقصودِ الدَّعوة النَّبويَّة والرِّسالة الإلهية، وهو لبُّ



القرآن وزبدتُه، وبيان التوحيد العلميِّ القوليِّ المذكور في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]، والتَّوحيدِ القصديِّ العمليِّ المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١]، وما يتَّصل بذلك؛ فإنَّ هذا بيانٌ لأصل الدَّعوةِ إلى الله وحقيقتِها ومقصودِها».

وهذا مقامٌ شريف، بل هو أشرفُ مقامٍ قامه الدَّاعي إلى سبيل ربِّه، وَلَوْ فَرَغْتُ له وجَرَّدْتُ قلبِي لَهُ خالصًا ما أدَّيْتُ ما يجب لله عليَّ فيه، وإنَّما أردتُ بهذه الفائدة أمرين:

الأول: استنهاض هِمَم الدَّاعين إلى الله نحو التَّوحيد وتعظيمِ شأنِه، لاسيما الزَّاهدين المزهِّدين للأمَّة فيه، والأمر يشتدُّ مع الَّذين اتَّخذوا من التَّقصير في هذا الجانب شعارًا لدعوتهم؛ زاعمين أنَّهم يتجنَّبون ما يملُّ النَّاس أو يجرح مشاعرَهم ولو كان هو حقُّ الله الخالص!!

فالتَّوحيد هو حقُّ الله الأعظم، ففي «الصحيحين» عن معاذ بن جبل، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ**»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا؛ أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟**»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**».

وقد نبَّه القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٩٠) على نكتةٍ بديعةٍ في مناسبةِ قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣] لآيةٍ قبلَها، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة: ١٥٩]، فقال: «لمَّا حذَّر تعالى من كتمان الحقِّ، بيَّنَ أنَّ أوَّل ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه التَّوحيد، وَوَصَلَ ذلك بِذِكْرِ البرهان».

الثاني: التَّذكير بأنَّ تفسير السَّلف هو أحسنُ تفسيرٍ، وإنْ نَبَتْ عنه أفهامُ النَّاس، كما رأينا في تفسير آية البَابِ، فهذه هي المحَجَّة البيضاء، وهؤلاء هم السَّالكون جادَّتها، فَخُذُوا طريقَها، والْزَمُوا فريقَها، والعاقبةُ للتَّقْوَى.

تنبيه: كتبَ بعضُ من لا يهتمُّ بالتوحيد ما سمَّوه: «التَّوحيد أوَّلا لو كانوا يعلمون»، لكنَّ سداه ولُحمتَه عندَهم الحاكميَّةُ والتَّشهيرُ بمثالب السَّلاطين، وكلُّ همِّهم في ذلك الوصول إلى تكفير الحكَّام بلا تفصيل!! وآيتهم الثَّرثرةُ بالإرجاء ورميُ كلِّ من لا يوافقهم به، فليُحذَرْ هؤلاء؛ فإنَّ الحقَّ فيما كتبوا أن يسمَّى: «التَّكفير أوَّلاً لو كانوا يعلمون!!».

مجالات الإصلاح في الفقه الإسلامي

عبد المجيد جمعة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين، نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد، فقد مرَّ الفقهُ الإسلاميُّ بمراحلَ عدَّةٍ، من أهمِّها عصرُ النُّبوَّةِ، حيث كان مصدرُ التَّشريعِ وقتئذٍ هو القرآنُ والسُّنَّةُ، وقد أمر تعالى المؤمنين أن يردُّوا كلَّ ما تنازعوا فيه من أمور الدِّين: دقِّه وجلِّه، جليِّه وخفيِّه إلى هذا المصدر فقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩** ﴾ [النساء: ٥٩]، والرَّدُّ إلى الله سبحانه هو الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرَّسول ﷺ هو الرَّدُّ إليه نفسِه في حياته، وإلى سُنَّتِه بعد وفاتِه.

وكان الرَّسول ﷺ هو المبلِّغ عن الله تعالى المبيِّن لشرعه، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ**﴾ [النساء: ١٠٥]، وقد أمرنا تعالى بطاعته وتحكيمِه والتَّحاكمِ إليه فقال: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥** ﴾ [النساء: ٦٥]، فلا شرع إلاَّ ما شرعه اللهُ أو ما شرعه رسولُه.

ولَمَّا كان القرآنُ والسُّنَّةُ هما المرجعُ الأساسيُّ للصَّحابة في جميع الأحكامِ والقضايا، لم يكنْ هناك مجالٌ للاختلافِ في المسائلِ الفقهيَّةِ على عهد رسول الله ﷺ، ولئن كان هناك خلافٌ بين الصَّحابة إذا وقع منهم اجتهادٌ في حَضْرَتِه أو غَيْبَتِه ـ كما هو واقع منهم في حوادثَ كثيرةٍ، ووقائعَ متعدِّدَةٍ، وهو الصَّحيح من مذاهبِ العلماءِ ـ فإنَّهم كانوا يرجعون إليه ﷺ، فيُقِرُّ المصيبَ منهم، ويُنْكِرُ على المخطئِ، فسرعانَ ما يزول الخلافُ، ويَثْبُتُ الصَّوابُ.

ولم يفارقِ النَّبيُّ ﷺ هذه الحياة، ويودِّعْ

أصحابَه، وينقطعِ الوحيُ، حتَّى كَمُلَ الدِّينُ، وتكامل بناءُ الشَّريعةِ، فقد بلَّغ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصح الأمَّةَ، وتركها على المحجَّة البيضاءِ، وحثَّها على التَّمسُّك بكتاب الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ بعده.

فأخذ الصَّحابةُ ﷺ بوصيَّة النَّبيِّ ﷺ، وما عَهِدَهُ إليهم، وعَضُّوا على ذلك بالنَّواجِذِ والأضْرَاسِ، فعَلِمُوا التَّنزيلَ، وفَهِمُوا مرادَ الرَّسولِ ﷺ، وعرفوا سُنَنَهُ، فحكَّموا النُّصوصَ وتحاكموا إليها، ووقَفُوا عند حدودِها، فإذا نزلتْ بهم نَازِلَةٌ، وعرفوا حكمَها في كتاب الله أو سنَّةِ رسولِه ﷺ لم يَلْتَفِتُوا إلى غيرِهما، بل تركوا آراءَهم، ورجَعُوا عن أقوالِهم إذا رأَوْا أنَّها تخالفُ النَّصَّ.

وبعد أنِ اتَّسعتْ دائرةُ الإسلامِ عن طريق الفتوحاتِ الإسلاميَّةِ، وامتدَّ نفوذُها إلى ما وراء الجزيرة، ودخل كثيرٌ من الأُمَمِ في دين الله أفواجًا، واختلطَ العجمُ بالعربِ، واجهتْهُم وقائعُ عِدَّة، ونزلت بهم نوازلُ كثيرة، لا عَهْدَ لهم بها في عصر النُّبوَّةِ، فدعتِ الحاجةُ إلى معرفة أحكامِ تلك الحوادث الطَّارئةِ، ومعلومٌ أنَّ النُّصوصَ الشَّرعيَّةَ محدودةٌ، لم تَنُصَّ على كلِّ الحوادثِ، فكان من الضَّروريِّ أن يجتهدوا في إيجادِ حلٍّ لهذه النَّوازلِ، وينظرُوا إلى أقربِ ذلك من النُّصوص العامَّةِ، فيُخرِّجوا أحكامَ هذه الحوادثِ الجزئيَّةِ على القواعدِ الكلِّيَّةِ المقرَّرَةِ في الكتاب والسُّنَّةِ، فإنْ أعوزَهم ذلك استشاروا فقهاءَ الصَّحابةِ، فإذا اتَّفق رأيُهم على شيءٍ قضوا به، ولَزِمَ تنفيذُه، كما وقع لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ في جَمْعِهِ للقرآنِ، وقتالِه مانعِي الزَّكاةِ، وأهلِ الرِّدَّةِ وغيرِها.

وقد قال ميمون بنُ مِهرانَ: «كان أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ إذا ورد عليه حُكْمٌ نَظَرَ في كتاب الله تعالى، فإنْ وجَدَ فيه ما يقضِي به قضى به، وإن لم يجدْ في كتابِ الله نَظَرَ في سُنَّةِ رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضي قضى به، فإن أعْيَاهُ ذلك سأل النَّاسَ: هل عَلِمْتُم أنَّ رسولَ الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فرُبَّما قام إليه القومُ يقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإنْ لم يجد سُنَّةً سنَّهَا النَّبيُّ ﷺ جمعَ رؤساءَ النَّاسِ فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيُهم على شيء قضى به، وكان عُمَرُ يفعل ذلك، فإذا أعْيَاهُ أنْ يَجِدَ ذلك في الكتابِ والسُّنَّةِ سأل: هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء؟ فإن كان لأبي بكر قضاءٌ قَضَى به، وإلاَّ جمع علماءَ النَّاسِ واستشارهم، فإذا اجتمع رأيُهم على شيءٍ قضى به».

وفي كتاب عمر بنِ الخطَّاب إلى شُرَيْح: «إذا وجَدْتَ شيئًا في كتاب الله فَاقْضِ به، ولا تَلْتَفِتْ إلى غيره، وإن أتاك شيءٌ ليس في كتاب الله فاقضِ بما

سنَّ رسولُ الله ﷺ، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولم يَسُنَّ رسولُ الله ﷺ فاقضِ بما أجمع عليه النَّاس، وإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولا سنَّةِ رسولِ الله ﷺ ولم يتكلَّم فيه أحدٌ قبلَك، فإنْ شِئْتَ أن تجتهدَ رأيَك فتقدَّم، وإن شِئت أن تتأخَّر فتأخَّر، وما أرى التَّأخُّرَ إلاَّ خيرًا لك»[1].

والمقصود أنَّ الصَّحابةَ ﷺ كانوا لا يرجِعون إلى الرَّأيِ إلاَّ عند عدمِ وجود النَّصِّ.

ثم جرى التَّابعون وتابعوهم لهم بإحسان على منهجِهم السَّليمِ، واقْتَفَوْا على آثارهم صراطَهم المستقيمَ، فكانوا يرجِعُون إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، فإنْ لم يجدوا في الكتابِ والسُّنَّةِ، أخذُوا بأقوالِ الصَّحابةِ، فإن لم يجدوا فيما قَالَهُ واحدٌ منهم، اجتهدوا رأيَهم.

ثمَّ حَمَلَ الرَّايةَ بعدهم الأئمَّةُ من القرن الرَّابع، وساروا على نهجهم، في تَعَرُّفِهِم على أحكام النَّوازِل، وقد عَرَفَ الفقهُ في هذا العصرِ نهضةً فقهيَّةً كبيرةً، وحياةً علميَّةً واسعةً، حيث بَرَزَ فيه علماءُ مجتهدون، ودُوِّنَتِ العلومُ في مختلف الفُنُونِ، وكان للفقه الحظُّ الأَوْفَرُ في التَّدوينِ، إلى جانب علم الحديث، بل كان تدوينُ العلومِ الأخرى خَادِمًا للفِقْهِ، وكانت كتبُ الفقهِ تُعنَى بالدَّليلِ، وفقْهِ الصَّحابةِ والتَّابعينِ والفقهاءِ المجتهدين، وكانت أبوابُ الاجتهاد، والنَّظرِ في المسائلِ، وطرق الاستدلال مفتوحةً على مِصْرَاعَيْها، لمنْ هو أهلٌ لذلك.

والحاصل أنَّ هذا العصرَ يُعتبر ـ بحقٍّ ـ بالنِّسبةِ للفِقْهِ عصرًا ذهبيًّا.

ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ، ضَعُفَتْ هِمَّتُهُمْ عنْ سلوكِ سبيل الأوَّلِينَ، وقَصُرَ جهدُهم عن النَّظرِ في النُّصوصِ والاستنباطِ منها، ورَضُوا لأنفسِهمُ التَّقليدَ المَحْضَ، والتَّعَصُّبَ البَحْتَ، واتَّخَذَ كُلُّ واحدٍ منهم إمامًا يتَّبعه، ومذهبًا يلتَزِمُه، وصار مبلغَ علْمِهم فَهْمُ كلامِ أئمَّتِهم، وبيانُ أدلَّتِهم، والتَّفريعُ على قواعدهم، وبذلُ الجهد في نُصْرَةِ مذهبهم، والرَّدُّ على مخالفيهم، حتى انقَسَمَت دولةُ الإسلام إلى أربعةِ مذاهبَ، لكلِّ مذهبٍ أنصارٌ وأشياعٌ، وأحزابٌ وأتباعٌ.

لقد بلغ من التَّعصُّبِ الأعمى والتَّقليدِ للأئمَّةِ أنْ صارت نصوصُ إمام المذهبِ كَنُصُوصِ الشَّارعِ، كما قال القاضي عياضٌ في «المدارك»: «إنَّ لفظَ الإمام يَتَنَزَّلُ عند مقلِّده بمنزلة ألفاظ الشَّارع»[2]، واشْتُهِرَ عن الإمام الكَرْخِيِّ الذي انتهت إليه رئاسةُ الحَنَفِيَّةِ بالعراقِ أنَّه قال: «كلُّ آيةٍ أو

حديثٍ يُخالف ما عليه أصحابُنا فهو إمَّا مؤوَّلٌ أو منْسُوخٌ»؛ وادَّعى القومُ انقطاعَ الاجتهادِ، وغلقَ أبوابِه على رأس المائة الرَّابعةِ، ولم يَبْقَ ـ بالنِّسبة إليهم ـ مجتهدٌ مطلقٌ، بل المجتهدُ عندهم الذي يفهم نصوصَ إمامِه، ويُفَرِّعُ على أصوله، ويطْلِقُونَ عليه اسم: «مجتهد مقيّد».

وقد بُلِيَ الفقهُ في عصر التَّقليدِ بالجمودِ، وأصابه رُكودٌ، ونَجمَ عن ذلك آثارٌ وخيمةٌ، وعواقبُ ذميمةٌ، من أهَمِّهَا ردُّ النُّصوصِ الصَّحيحةِ الصَّريحةِ المخالفةِ للمذهبِ، ولو بالتَّأويلِ الفاسدِ، ومنها عَزْلُ النُّصوصِ عن المسائلِ، وخُلُوُّ كثيرٍ من كتبِ المذاهب من الأدلَّةِ، والعنايةِ بنقل أقوالِ أئمَّتِهم، ومنها الاهتمامُ بالكتب المختصرةِ والمتونِ والحَوَاشِي التي هي أشْبَهُ بالألغازِ، حتَّى احتيجَ إلى شَرْحِهَا، ووضعِ الحواشي عليها، بل يقوم بشرحِها مصنِّفُها نَفْسُه، وقد عَاقَتِ الطَّالبَ عنْ تأصيلِ العلمِ وتحصيلِه، وتكوينِ مَلَكَتِهِ الفقهيَّةِ، ومنها كثرةُ التَّآليفِ في الفَنِّ الواحد مِمَّا زادَ الأمرَ تعقيدًا والْتِبَاسًا، وأصابَ طالبَ الفقهِ المَلَلُ والكَلَلُ، وعاقَهُ عن التَّحصيلِ.

وقد قال ابنُ خلدون في «مقدِّمته» (١٠٢١ ـ دار الكتاب اللُّبْنَانِي): «اعلم أنَّه ممَّا أَضَرَّ بالنَّاس في تحصيل العلم، والوقوفِ على غاياته، كثرةُ التَّآليف، واختلافُ الاصطلاحات في التَّعليم، وتعدُّدُ طرقِها، ثمُّ مطالبةُ المتعلِّم والتِّلميذِ باستحضار ذلك، وحينئذ يُسلَّم له منصِبُ التَّحصيلِ، فيحتاجُ المتعلِّمُ إلى حفظها كلِّها أو أكثرِها، ومراعاةِ طرقهَا، ولا يَفِي عمرُه بما كُتب في صناعةٍ واحدةٍ إذا تَجرَّدَ لها، فيقع القصورُ ـ ولابدّ ـ دون رتبةِ التَّحصيلِ.

ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكيِّ بالكتب: «المدوَّنة» ـ مثلاً ـ وما كُتِبَ عليها من الشُّروحاتِ الفقهيَّةِ، مثل: كتاب ابن يونس واللَّخمِي، وابنِ بشير، و«التَّنبيهات»، و«المقدِّمات»، و«البيانِ والتَّحصيلِ على العُتْبِيَّة»، وكذلك كتاب ابنِ الحَاجِبِ، وما كُتِبَ عليه؛ ثُمَّ إنَّه يحتاج إلى تمييز الطَّريقةِ القَيْرَوَانِيَّةِ من القُرْطُبِيَّةِ والبَغْدَادِيَّةِ والمِصْرِيَّةِ، وطرقِ المتَأَخِّرينَ عنهم، والإحاطةِ بذلك كلِّه؛ وحينئذٍ يُسَلَّمُ له منصِبُ الفُتْيَا، وهي كلُّها متكَرِّرَة والمعنى واحدٌ، والمتعلِّم مطالَبٌ باستحضار جميعِها، وتمييزِ ما بينها، والعُمْرُ ينْقَضِي في واحدٍ منها...».

ومنها: عدمُ تنقيح كتب الفقه فترى بعضَ المسائلِ مُشَتَّتَةً على مختلفِ الأبواب، فَيُضْطَرُّ الفقيهُ إلى جُهْدٍ كبيرٍ في مراجعتِها، وقد يستغرقُ ذلك مراجعة أبواب وفصول كثيرة، وربَّما يجدُ المسألةَ في

غير مظَانِّها، كما هو حالُ بعضِ كتب الحنفيَّة والمالكيَّة؛ ومنها: اتِّساعُ دائرة الخلاف، وظهور الفِتَنِ المذهبيَّةِ حتَّى أفضى ذلك إلى التَّقاتلِ والتَّدابرِ، وطَعْنِ بعضِهم في بعضٍ، وإبطالِ الصَّلاةِ خلفَ بعضِهم بعضًا، كما حصل بَيْنَ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ، ومنها: استحلالُ المحرَّماتِ بأَدْنَى الحِيَلِ، وقدْ صُنِّفَتْ في ذلك مُصَنَّفَاتٌ؛ ومنها: اختيارُ الأقوال بالتَّشَهِّي والهوى، وتَتَبُّعُ الرُّخَصِ، والقولُ بالتَّلفيقِ؛ ومنها: كثرةُ الجَدَلِ والمناظراتِ بين المذاهبِ انتصارًا للمذهبِ، وغيرِ ذلك من البلاَيَا التي حلَّتْ بالفقه الإسلامي...

ففي خِضَمِّ هذا الجمودِ الفِكْرِيِّ والتَّقليدِ الأعْمى، والأوضاعِ المزرية الّتي آلَ إليه الفقهُ، كان من الضَّرُورِيِّ إعادةُ النَّظرِ فيه، والعودةُ به إلى العهد الأوَّلِ، وإبرازُه في الحُلَّةِ الزَّاهيَةِ التي كان يَتَحَلَّى بها في العصرِ الذَّهبيِّ، وإصلاحُ ما شَانَهُ، لِيَنْهَضَ من كَبْوَتِهِ، ويَصْفُوَ مِنْ كُدْرَتِهِ، ويَسْتَعِيدَ حيَوِيَّتَه ومكانَتَه المرمُوقَةَ التي كان يَحْظَى بها.

وهذه الدَّعوةُ تَتَلاءَمُ والنَّهضَةَ العلميَّةَ المباركةَ التي يعيشُها العالمُ الإسلاميُّ اليوم، فلا يصلح آخرُ هذه الأمَّةِ إلاَّ بما صَلحَ بِهِ أوَّلُها.

وتتجلَّى مظاهرُ الإصلاح في الجوانب التَّاليةِ:

أوَّلاً: إصلاحُ الفقهِ من حيثُ تشجيعُ الاجتهادِ لمن تَوَفَّرَتْ فيه شروطُه، وتحقَّقَتْ فيه أدواتُه، ـ ولا أقول: فَتْحُ باب الاجتهاد، لأنَّ بابَه لم ولن يُغْلَقَ ـ، وذلك بتدبُّر النُّصوصِ وتفهُّمِها، واستخراجِ القواعدِ والحِكَمِ والعِلَلِ والمناسباتِ منها، وتطبيقِها على المسائلِ المسْتَجَدَّةِ، وإلحاقِ ما لا نصَّ فيه منها على ما ورد به النَّصُّ؛ لأنَّ الحوادثَ تَتَجَدَّدُ، والنَّوازلَ تحدُثُ، وقد لا تكون معروفةً في العصورِ الماضيةِ، والنُّصوصُ الشَّرعيَّةُ لم تَنُصَّ على كلِّ حادثةٍ بعينِها، ولابدَّ من معرفةِ حكمِ الله فيها، ولا يتأتَّى ذلك إلاَّ عن طريق الاجتهاد، وهو أيْسَرُ ممَّا كان عليه في العصور السَّابقةِ؛ لأنَّ موادَّه متوفِّرَةٌ مجتمعةٌ في مظَانِّها، فقد جمع العلماءُ آياتِ الأحكامِ، وأحاديثَ الأحكامِ، وبيَّنُوا النَّاسخَ والمنسوخَ، وضَبَطُوا مواضعَ الإجماعِ، ومواطنَ الخلافِ، ودوَّنُوا الفقهَ، وقعَّدوا قواعدَه وأصولَه، وتكلَّموا في اللُّغةِ وفنونِها، وكلُّ هذه العلومِ التي تعتبرُ دَعَائِمَ أساسيَّةً للاجتهاد مدوَّنَةً في كتبٍ خاصَّةٍ، سهلة المَرَامِ، لَيِّنَة المأخذِ.

وقد كان المتقدِّمُونَ يَبْذُلُونَ جهودًا مُضْنِيَةً في تحصيلها، وقد لا يتأتَّى لهم ذلك، كما هو واقعٌ في مسائل الإجماعِ والخلافِ، فكم من مسألةٍ ادُّعي



فيها الإجماعُ، وقد ثَبَتَ فيها الخلافُ.

فالاجتهاد هو القلبُ النَّابِضُ الذي به حياةُ الفقهِ الإسلاميِّ، ودليلٌ على صلاحيَّةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ السَّمْحَةِ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، والوسيلةُ المثْلَى للتعرُّفِ على أحكامِ النَّوازلِ؛ والقولُ بسدِّ بابِ الاجتهادِ هو إجهاضٌ للفقهِ الإسلاميِّ، وتضييقٌ لدَوْرِه الفَعَّالِ في مواجهة المستجدَّاتِ، ومواكبةِ التَّطَوُّرَاتِ، وإيجادِ حلولٍ للمشكلاتِ، ونُكْرَانٌ لنعمةِ الفِكْرِ والنَّظَرِ.

ثانيا: إصلاحُ الفقه من حيثُ تصفيَتُه من الأحاديثِ الضَّعيفةِ، والأخبارِ الوَاهيَةِ التي شانَتْ كُتُبَ الفقهِ، وقد بَنَى كثيرٌ من الفقهاءِ عليها أحكامَهم، وخرَّجوا عليها أصولَهم، إمَّا جهلاً منهم بأسانيدِها وعِلَلِها، وإمَّا تعصُّبًا ونصرةً للمذهبِ.

ومعلومٌ أنَّ الأحكامَ لا تُبْنَى إلاَّ على ما صحَّ من الأحاديث، فإذا صُفِّيَتْ كتبُ الفقه من هذه الأحاديثِ، فإنَّه يَقِلُّ الخلافُ، ويُعْرَفُ الصَّوابُ.

وقد صُرِفَتْ عنايةُ كثيرٍ من علماءِ الحديث إلى تخريج الأحاديثِ الواردة في كتب الفقه المعتمدةِ وتحقيقِها، مع بيانِ درجتها من حيث الصِّحَّةُ أو الضَّعفُ.

ثالثًا: إصلاحُ الفقه منْ حيثُ تحليتُه بالنُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، وربطُ مسائِلِه بدلائلِها، فيُذْكَرُ مع كلِّ مسألةٍ دليلُها من القرآنِ والسنَّةِ والإجماعِ والقياسِ وأقوالِ الصَّحابةِ، وغيرِها من المصادر التبعيَّة؛ وبهذا تُفْهَمُ الأحكامُ، وتُعرفُ مآخذُ الأقوالِ؛ لأنَّ أخذَ الحكم بغيرِ معرفةِ دليله هو عينُ التَّقليدِ، وقد عرَّف العلماءُ التَّقليدَ أنَّه: «قَبُولُ قولِ الغيرِ بغير حُجَّةٍ»، واتَّفقوا على أنَّ التَّقليدَ ليس بعلمٍ.

رابعًا: إصلاحُ الفقهِ من حيثُ تصفيتُه من الأقوالِ الشَّاذَّةِ، والآراءِ الباطلةِ المخالفةِ للنُّصوصِ، والاختياراتِ المرْجُوحَةِ التي ثَبَتَ ضعفُهَا، وإبرازُ المسائلِ المجمعِ عليها، والمسائلِ الرَّاجحةِ التي ثَبَتَتْ بالدَّليلِ الصَّحيحِ الصَّريحِ؛ أمَّا المسائلُ التي تكافأَتْ فيها الأدِلَّةُ، ولم يُتَبَيَّنْ فيها القولُ الرَّاجحُ فَتُعْرَضُ، ويبقى الاختيارُ بحسب الرُّجوع إلى الأصل أو المرجِّحَاتِ الخارجيَّةِ، فمواردُ النِّزاعِ ومسالكُ الاجتهاد لا إنكارَ فيها.

خامسًا: إصلاحُ الفقه منْ حيثُ تصفيتُه من الفَرَضِيَّاتِ والأُغْلُوطَاتِ التي يستحيلُ وقوعُها، بل رُبَّما وصلت إلى حدِّ السَّخافاتِ والحماقاتِ ـ في بعض الأحيانِ يُسْتَحْيَى من ذكرها ـ أو المسائلِ التي لا فائدةَ منها، ولا طائلَ من ورائِها، وقد يُعتبر البحثُ

عنها من التَّكلُّفِ الذي نُهِينَا عنه، وتكون دراستُها من باب إضاعةِ الوقت وشُغْلِ البَالِ، وقد أَخْرَجَتِ الفقهَ عن مقصده وأبعدَتْه عن ميدانِ العمل.

سادسًا: إصلاحُ الفقه من حيثُ تصفيتُه من البدع والمحدثات؛ لأنَّ الأصلَ في العبادات التَّوقُّفُ، فلا يُشْرَعُ منها إلاَّ ما شَرَعَه الله وما صحَّ عن رسول الله ﷺ، كالقولِ باستحباب صلاةِ الرَّغائِبِ وصلاةِ ليلةِ النِّصفِ من شعبانَ.

ولتحقيق هذه الإصلاحات، وتجسيدها على أرض الواقع فإنَّني أقدِّم هذه الاقتراحات التَّالية:

أوَّلاً: العملُ على إخراج فقهاء مجتهدين، وتأهيلِهم لحمل الرَّايةِ، يتَّصِفُونَ بحُسْنِ الفهم، وسلامةِ الفكرِ، وقوَّةِ النَّظَرِ، ويملِكُونَ الملَكَةَ العلميَّة، تمكِّنُهم من استنباط الأحكام من أدلَّتِها، وإلحاقِ ما لا نصَّ فيه بالمنْصُوصِ عليه، وذلك بتحصيل علوم الاجتهاد، كالقرآن وعلومه، والحديثِ وعلومه، وأصول الفقه وقواعِدِه، والعربيَّةِ وعلومِها، ولا شكَّ أنَّ للجامعات والكلِّيَّات الإسلاميَّةِ دورًا مهمًّا في هذا المجال.

ثانيًا: تكوينُ طلبةِ العلمِ النُّجباءِ للتَّفَقُّهِ بتخريج الفروع على الأصول، والتَّأَمُّلِ في مقاصد التَّشريع وأسرارِه، والنَّظَرِ في معاني الأحكام ومناسباتها، واستخراجِ حكمِها وعللِها، حتى تتكوَّنَ لديهم مَلَكَةٌ علميَّةٌ، وأهليَّةٌ تامَّةٌ، وذَوْقٌ فِقْهِيٌّ سليمٌ، يمكِّنُهُم بذلك بلوغَ درجةِ «الاتِّباع»، وتمكِّنُهم من معرفة الحكم.

ثالثا: الاهتمامُ بدراسة كتب الفقه المقَارَنِ، التي تُعْنَى بذكر أقوالِ الأئمَّة وأدلَّتِهم ومآخذِهم، وتبيِّنُ القولَ الرَّاجحَ من أقوالهم، كـ«المحلَّى» لابن حزم، و«الاستذكار» لابن عبد البَرِّ، و«المغني» لابن قدامة، و«المجموع» للنووي...

رابعًا: عقدُ دوراتٍ علميَّة، ومجَامِعَ فقهيَّة، تكون دوريَّةً ـ على غِرَارِ ما هو موجود في بعض البلاد الإسلاميَّة، يلتقِي فيها العلماءُ والفقهاءُ من كلِّ أنحاء العالم، يبحثون أهمَّ القضايا المستجدَّةِ في العالم الإسلاميِّ، بغيةَ النَّظَرِ فيها، ومعرفةِ حُكْمِ الشَّريعة فيها.

خامسًا: تشجيعُ البُحُوثِ العلميَّة التي تتناول مسائلَ فقهيَّةً معيَّنَةً، على نحو المجلاَّتِ المحكَّمة والأطروحات الجامعيَّة.

هذا، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) انظر: «إعلام الموقِّعين»: (٢/ ١١٥ ـ تحقيق مشهور).

(٢) نقلاً عن كتاب «الفكر السَّامي» للفاسي (٣/ ٧).

كلمة في منهج الدعوة إلى الله

عبد الغني عوسات

إنَّه لا يخفى على أحدٍ واقعُ المسلمين، وما وَصَلُوا إليه من الذُّلِّ والصَّغَارِ، وفسادِ الأحوال المؤْذِنِ بالخرابِ والدَّمارِ، ممَّا لا يجدي عدّ صور هذا الواقع دون معالجة جادَّة لهذا الوضع المريرِ.

وَلَعَلَّ المرْءَ عندما يَنْظُرُ إلى النَّتِيجَةِ يقوده نظرُه إلى المقدِّمة التي هي مخاضُها ومناطُها ـ فالحكم على الشَّيْءِ فَرْعٌ عن تصوُّرِه ـ فيجد السَّبب الرَّئيس الذي آلَ بالمسلمين إلى هذه الحالة المُزْرِيَةِ، هو ابتعادُهم عن كتاب الله تعالى، وعدمُ تمسُّكِهم بسنَّةِ المصطفى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وزهدُهم في اتِّباع منهج سَلفهم الصَّالح، وهو ما أشار إليه نبيُّ هذه الأمّة ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في هذا البيان المعبَّر عنه بأصدق لسانٍ، حين قال: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لاَ يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[1].

وقال أيضًا ﷺ: «**وَضُرِبَ**[2] **الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»، فَبَلَغَ بذلك الذُّلُّ والهوانُ استغلالَ أهل الشِّرك والكفر لخيراتِ المسلمين وسفْكَ دمائهم، وتدنيسَ أعراضهم، وانتهاكَ مقدَّساتِهم، حين تَنَادَوْا عليهم مُؤْتَمِرِينَ وتداعوْا عليهم مُتَحَالِفِينَ، فلم تُغْنِ عنهم كَثْرَتُهم شيئًا وذاقوا وبالَ أمرِهم وانقلبوا خاسِرينَ، وهو ما أخبر عنه الصَّادق المصدوق ﷺ في قوله: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فقال قائل: «أَوَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذ؟» قال: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهن**»، قالوا: يا رسول

الله! وما الوهنُ؟ قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ»[٣].

وبهذا يُدركُ العاقلُ الأَرِيبُ أنَّ ذلك راجع إلى المسلمين أنفسِهم، وأنَّ كلَّ ما أصابَ النَّاسَ من مصيبة فبِما كسبت أيديهم، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥**﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠**﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَا اخْتلج عِرْقٌ وَلاَ عَيْنٌ إِلاَّ بِذَنْبٍ، وَمَا يَدْفَعُ اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ**»[٤].

وإنَّ ذوي النُّفوس الأبيَّة مهما حلَّت بهم رَزِيَّةٌ أو أَلَمَّتْ بهم رَدِيَّةٌ فإنَّهم يَسْعَوْنَ إلى إزالتِها بإرادةٍ قويَّةٍ وآمالٍ سَنِيَّة وأعمال سُنِّيَّةٍ، وسُرعان ما يُمْعِنُونَ النَّظرَ ويُنْعِمُونَ الفِكْرَ ويُحكِمُون السَّبْرَ لواقعهم، فيحاسبون أنفسَهم فَيُدْرِكُونَ مواقع العِلَلِ ويهتدون إلى مواطنِ الزَّلَلِ، ويتنبهون إلى سببِ الخَلل، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١**﴾ [الرعد: ١١].

وعن الرَّسولﷺ أنَّه قال: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»، قالوا: فكيفَ لنَا يا رسُولَ الله؟ وكيفَ نصنعُ؟ قال: «**تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ الأَوَّل**»[٥]، وبذلك يعلمون أنْ لا مَنَاصَ مِنَ الواقع المزْرِي ولا خلاص مِنَ الوضع المتَرَدِّي إلاَّ بإصلاح ما أُفسِد، وجَبْرِ ما انْكَسَر، وتَقويةِ ما ضَعُف، وحُسنِ الرُّجوع إلى الحقِّ المبين، وصدقِ العودة إلى المنبَع المَعين، وذلك هو سبيل القوَّة والتَّمكين، والخروج من هذا الوضعِ المهِين، وذلك لا يتعلَّق ولا يتحقَّقُ إلاَّ بالإصلاح الصَّحيح القائمِ على أسُسِهِ المتينَةِ والمُنبَثق من مظانِّه المُبِينة.

قال العلاَّمةُ عبدُ الرَّحمنِ بنُ يَحْيَى المُعَلِّمِي اليَمَانِي: «قد أَكْثَرَ العارفُون بالإسلام ـ المخلصون له ـ من تَقْرِير أنَّ كلَّ ما وقع فيه المسلمون من الضَّعف والخَوَر والتَّخاذل ـ وغيرِ ذلك من وجوه الانْحِطَاطِ ـ إنَّما كان لبُعدهم عن حقيقة الإسلام.

وأرى أنَّ ذلك يرجعُ إلى أمُور:

الأول: الْتِبَاسُ ما ليس من الدِّين بما هو منه.

الثاني: ضَعْفُ اليَقِينِ بما هو من الدِّين.

الثالث: عدمُ العمل بأحكام الدِّين.

وأرى أنَّ معرفةَ الآدابِ النَّبويَّة الصَّحيحةِ، في العبادات والمعاملات، والإقامةِ والسَّفر، والمُعَاشَرَةِ والوَحْدَةِ، والحركةِ والسُّكونِ، واليقظةِ والنَّومِ، والأكلِ والشُّرْبِ، والكلامِ والصَّمْتِ، وغيرِ ذلك ممَّا يَعْرِضُ للإنسان في حياته، مع تَحَرِّي العملِ بها

يَتيَسَّرُ، هو الدَّوَاءُ الوحيدُ لِتِلْكَ الأمراضِ، فإنَّ كثيرًا من تلك الآداب سَهل على النَّفس، فإذا عمل الإنسانُ بما يسهُل عليه منها تاركًا لما يخالفُها لم يَلْبَثْ - إنْ شاء الله تعالى - أن يَرْغَبَ في الازْدِيادِ، فعسى أن لا تمضيَ عليه مدَّةٌ إلاَّ وقد أصبح قدوَةً لغيره في ذلك؛ وبالاهتداء بذلك الهَدْيِ القَويم، والتَّخَلُّقِ بذلك الخُلُقِ العظيم - ولو إلى حدٍّ مَا - يَسْتَنِيرُ القلبُ، ويَنْشَرِحُ الصَّدْرُ، وتطمئِنُّ النَّفْسُ، فيَرْسَخُ اليقينُ ويَصْلُحُ العملُ.

وإذا كَثُرَ السَّالِكُونَ في هذا السَّبيل لم تَلْبَثْ تلك الأمراضُ أنْ تزولَ إن شاء الله»[6].

ولَمَّا كان الإصلاحُ بهذه المنزلة الرَّفيعة والمَهمَّة العظيمةِ، كان لِزَامًا على من يُريد الإصلاحَ أن يكون على بصيرة من أمرِهِ ومُتَحَلِّيًا في ذلك بصفاته الجديرةِ، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومُتَّسِمًا في دعوتِه بما أمره به ربُّه حيث قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال العلاَّمةُ ابن باديس - رحمه الله -: «شرع اللهُ لعباده - بما أنزلَ في كتابه، وما كان من بَيان رسولِه - ما فيه استنارةُ عقُولهم، وزكاءُ نفوسِهم واستقامةُ أعمالهم، وسمَّاه سبيلا؛ ليلتزمُوه في جميع مراحلِ سيرِهم في هذه الحيَاة؛ ليُفضِيَ بهم إلى الغايةِ المقصودةِ، وهيَ السَّعادة الأبديَّةُ في الحياةِ الأُخرى؛ وأضافَه إلى نفسِه ليَعلَمُوا أنَّه هو وَضعَهُ وأنَّه لا شيءَ يُوصِلُ إلى رضْوانِه سِوَاه»[7].

وإنَّ على الدَّاعيةِ إلى الإصلاحِ على عِلمٍ وبَصيرةٍ أن يجعلَ نصبَ عَيْنَيْه جهودَ الأوَّلين فإنَّها كانت غيرَ قَصِيرَةٍ، وكانت آثَارُها غَزِيرَةً، وعلى رأسِهم الأنبياءُ الَّذين في نهجِهم الحكمةُ والعقلُ، والعصمةُ من الزَّلَلِ، وكان شعارُهم في ذلك ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨]، وتبَعًا لهم الصَّحابةُ - رضوان الله عليهم أجمعين - فقد كانوا على الإصلاح حَرِيصِينَ وعلى الصَّلاح ثَابِتِينَ، ويليهم من اتَّبَعَهُمْ فيه بإحسان إلى يوم الدِّين من الَّذين يَصْلُحُون إذا فَسَد النَّاسُ، والذين يُصْلِحُون ما أفسَدَ النَّاسُ.

فلابدَّ إذًا من منهج سديدٍ وطريق رشيدٍ يَتَّبِعُهُ كلُّ مَنْ يريدُ الإصلاحَ لا يَزِيغُ عنه ولا يَحِيدُ، وهو ما كان مُنْضَبِطًا في ذاته وضَابِطًا لغيره، ولقد قال الإمام مالك ابنُ أنسٍ - إمامُ دارِ الهجرة وإمامُ عِلْمٍ وهُدَى - كلمةً

ذهبيَّةً مُذَكِّرًا المُصلِحين بأنْ لا سبيل للصَّلاح والإصْلاح إلاَّ إذا كان على سبيل الصُّلاَّح، فقال ـ رحمه الله ـ: «وَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا لاَ يَكُونُ اليَوْم دِينًا، وَلَنْ يصلح آخر هذه الأمَّةِ إلاَّ بما صلح به أوَّلها»[٨].

وعَقيبَ هذه الكلمةِ القويَّة قال الإمامُ محمَّد البشير الإبراهيمي متعلِّقا بمَبناها ومُعلِّقا على معناها: «جملةٌ إن لم تكن من كلامِ النُّبوَّة فإنَّ عليها مَسحةً من النُّبوَّة، ولمحَةً من روحها، ووَمضَةً من إشراقها؛ والأمَّةُ المشارُ إليها في هذه الجملةِ أمة محمَّدٍ ﷺ، وصلاحُ هذه الأمة شيءٌ ضُربت به الأمثال، وقُدِّمت عليه البراهين، وقام غائبُه مقامَ العَيان، وخَلَّدته بطونُ التَّواريخ، واعترفَ به الموافقُ والمخالفُ، ولهج به الرَّاضي والسَّاخط، وسجَّلته الأرض والسَّماء، فلو نطقت الأرض لأخبَرت أنَّها لم تَشهد ـ منذ دَحْدَحها الله ـ أمَّةً أقومَ على الحقِّ وأهدى به من أوَّلِ هذه الأمَّة، ولم تشهد منذ دَحدحها الله مجموعةً من بني آدم اتَّحدت سَرائرُها وظواهرُها على الخير مثلَ أوَّل هذه الأمَّة، ولم تشهد منذُ دَحدحها الله قومًا بدأوا في إقامة قانُون العدلِ بأنفسهم، وفي إقامة شِرْعَة الإحسان بغيرِهم مثلَ أوَّل هذه الأمَّة، ولم تشهد منذُ أنزل الله إليها آدمَ وعَمَرَها بذريَّتِه مثالا صحيحًا للإنسانيَّة الكاملةِ حتَّى شهدته في أوَّلِ هذه الأمَّة، ولم تشهد أمَّةٌ وحَّدَتِ اللهَ فاتَّحدَت قُوَاها على الخير قبلَ هذه الطَّبقة الأولى من هذه الأمَّة»[٩].

فهو منهجٌ إذًا تَمتَدُّ أُصُولُه إلى الصَّدر الأوَّل وتَنْبعُ جذورُه مما قَرَّرَهُ العلماء الرَّبَّانِيُّونَ على مدار القُرُونِ، لا يَتَغَيَّرُ بتغيُّرِ الزَّمان والمكان، مهما تباعدتِ الأمْصَارُ وتقادمتِ الأعصارُ، فكانت قاعدةً جامعةً ومقالةً نافعةً: «نقتَدِي ولا نبتَدِي، نَتَّبعُ ولا نَبْتَدِعُ»، فإنَّ منهج السَّلف حجَّةٌ على الخلَفِ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمَّة قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، وأقومَها هَدْيًا، وأحسنَها حالاً؛ قومٌ اختارَهُم الله لصُحبَةِ نَبِيِّهِ، وإقامةِ دينِهِ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتَّبعوهم في آثارهم، فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم»[١٠]، ولتأكيد ذلك في أذهان النَّاس وتقريره، قال الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ مقولةً مشهورةً في تعبيره: «اصبرْ نَفْسَك على السُّنَّةِ، وَقِفْ حيث وَقَفَ القومُ، وقُلْ بما قالوا، وكفَّ عما كفُّوا، واسلكْ سبيلَ سلفِك الصَّالحِ، فإنَّه يَسَعُك ما وَسِعَهم»[١١].

ولعل القارئَ إذا أنعم النَّظَرَ في دعوة الرُّسُل عليهم صلوات الله أجمعين، يجدُها ثابتةً غير متغيِّرة على اختلاف الزَّمان والمكان وحالِ الأقوام الذين



أُرْسِلُوا إليهم وطولِ الفترة بين الرُّسل، فلم يتغيَّر أساسُ الرِّسالةِ ونقطةُ البدايةِ في الدّعوة والإصلاح ولو مرَّةً واحدة، وإنَّما قامت جميع الرِّسالات بالدَّعوة إلى إفراده سبحانه بالعبادة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال لنبيِّه ﷺ مخبرًا إيَّاه بما أُرسِل من سبقه في الميدان والبَيَان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فإنَّ الله تعالى العليم الحكيم اللَّطيف الخبير، العليم بأحوال عباده والخبير بما يليق ويصلح لهم في كلِّ حال قد اختار هذا الجميع الأوَّلين بدايةً بالمرسلين وكذلك المُرْسَلِ إليهم، فأَمَرَهُم أن يكونوا لهم من المتَّبعين.

فليس لأحدٍ من البَشَرِ أن يغيِّرَه باختياره لنفسِه أو لغيرِه طريقًا وصراطًا ومنهجًا للإصلاح غير هذا الطَّريق بدَعْوى «تغيِّر الظُّروف» أو «اختِلافِ المَطالبِ» وغيرِ ذلك من المسوِّغات الوَهْمِيَّة والمبرِّرَات غيرِ الشَّرْعِيَّة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

ويا دُعاة الإصلاح! اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتُمْ.

أمَّا مجالات الإصلاح التي ينبغي للمصلح أن يعتنيَ بها في دعوته ورسالته فإنَّها كثيرةٌ متعدِّدَةٌ تَعَدُّدَ ما دَخَلَ على أصولِ الدِّين وفروعِه من محدثات وتحريفات في مختلف المجالات بدءًا بالعقيدة والسُّنَّة والفقه والدَّعوة والسُّلوك وغيرها، والله المستعان وعليه التكلان.

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي وأحمد وغيرهم من رواية ابن عمر رضي الله عنهما، راجع: «السلسلة الصحيحة» (١١).

(٢) وفي رواية: «وجعل الذل...»، رواه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، انظر: «إرواء الغليل» (١٢٦٩).

(٣) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما عن ثوبان رضي الله عنه.

(٤) «صحيح الجامع» (٥٥٢١).

(٥) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، عن أبي واقد الليثي؛ وهو حديث حسن؛ «الصحيحة» (٣١٦٥).

(٦) في مقدمته على «فضل الله الصمد» (١/ ١٧).

(٧) «الدُّررُ الغاليةُ في آداب الدَّعوة والدَّاعية» (٢٥ ـ ٢٦) للإمام ابن باديس رحمه الله.

(٨) رواه عنه ابن الماجشون، كما ذكرها الشاطبي في «الاعتصام».

(٩) هذه الكلمات طليعة حديث كان ألقاه الشيخ البشير الإبراهيمي بدار الإذاعة في بغداد واختص به مجلة «الأخوة الإسلامية»، (العدد ١/ ٢٢ نوفمبر ١٩٥٢)، ثم نقلته «البصائر»، (العدد ٥/ ٢٠ فيفري ١٩٥٣) ويمكننا قراءة الحديث كاملا في «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٤/ ٩٣ ـ ٩٥).

(١٠) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: (١٨١٠)

(١١) الآجري في «الشريعة»: (١/ ٥٨).

صلح الحديبية... الفتح المبين

أزهر سنيقرة

إنَّ حاجةَ المسلمينِ إلى أخذِ العبرِ والدُّروسِ من سيرة نَبِيِّهم ﷺ تُعتبر من أُولَى الأَوَّلِيَّاتِ، خاصَّةً في مثل هذا الزَّمان، الَّذي عَزَّتْ فيه القدوةُ الحسنةُ، وتَتَابَعَتْ على المسلمين فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيل المظلم، كان من أشدِّها تَكَالُبُ الأعداء عليهم على اختلاف مناهجهم وأديانهم، استوجبتْ عليهم أن يُراجِعوا سيرةَ نبيِّهم ﷺ ويستحضرُوا مآثرَه تحقيقًا لقول الله جلَّ وعلا حيث قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإنَّ من أهمِّ أحداث السِّيرةِ التي كان لها الأثرُ البالغُ في حياة نبيِّنا ﷺ ومن معه من الصَّحابة الكرام حادثةَ الحُدَيْبِيَة، أو ما اصْطُلِحَ على تسميته بصُلْحِ الحديبية، التي كانت بُشْرَى عظيمةً لنبيِّنا ﷺ ومن معه، والصُّلْحُ والإِصْلاَحُ والصَّلاَحُ مِن قِيَمِ الإسلام البارزة، بل هي دعوتُه.

والصُّلح هنا المقصودُ به الاتِّفاق على السِّلْمِ بين الطَّائفتين المُتحاربتين، وهذا سِلْمٌ خاصٌّ؛ لأنَّه بَيْنَ النَّبيِّ ﷺ وقومِه الَّذين أخرجوه من أَحَبِّ البلاد إليه ودارت بينه وبينهم حروبٌ، ورغم شِدَّة حبِّ الصحابة رضي الله عنهم لِمَهْجَرِهم مع رسول الله ﷺ فإنَّ مشاعرَ الشَّوْقِ إلى مكَّةَ لم تَخْمُدْ في قلوبهم، وما بَرِحُوا ينتظرون اليوم الَّذي تُتاح لهم فيه فرصةُ العودة إليها والطَّوافِ بِبَيْتِهَا العتيقِ، إلى أن جاء ذلك اليوم الَّذي بَرَزَ فيه النَّبيُّ ﷺ إلى أصحابه ليخبرَهم برؤياه الَّتي رأى فيها دخولَه إلى مكَّةَ وطوافَه بالبيتِ، فاستبشر المسلمون بهذه الرُّؤيا لِعِلمهم أنَّ رُؤْيَا الأنبياء حقٌّ، وتَهَيَّؤُوا لهذه الرِّحلة العظيمة.

وفي يوم الاثنين من هِلال ذي القعدة من



السَّنَة السَّادسة للهجرة خرج الرَّسول ﷺ، يريد العمرةَ ومعه ألفٌ وأربعمائةٍ من الصَّحابة، وليس معهم إلاَّ سلاحَ السَّفر، فأَحْرَمُوا بالعُمْرَة من ذي الحُلَيْفَة، فلمَّا اقتربوا من مكَّةَ بلَغَهم أنَّ قريشًا جمعتِ الجموعَ لمقاتلتهم وصدِّهم عن البيت.

هذا الخروجُ المبَارَكُ وما تخلَّلَه من أحداث، قد أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» في كتاب الشُّروط من حديث طويل برقم: (٢٧٠٠، ٢٧٠١، ٤٢٥٢)، نَجْتَزِئُ منه ما له صِلةٌ بالعِبَرِ والفوائدِ المذكورة لاحقًا، ولعلَّ أبرزَ فصولِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ ما تَضَمَّنَهُ الكتابُ الَّذي كان بين النَّبيِّ ﷺ ومُفَوَّضِ قريش سُهَيْل بنِ عَمْرٍو، بحضور ذلك الجَمع الحاشِدِ من صحابةِ رسول الله ﷺ، وهم يشهدون ويسمعون لتلك الشُّروط التي لم يكن من السَّهل هَضْمُها ولا قَبُولها.

قال البخاري: «قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لما جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»، قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْل بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَالله مَا أَدْرِي مَا هُوَ! وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَالله لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**»، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ البَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالله إِنِّي لَرَسُولُ الله وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّد بْن عَبْدِ الله**»؛ قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «**لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لَا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً ـ أي قهراً ـ وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلاَّ رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ الله! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِماً...».

هذا دون أنْ نَنْسَى ذلك الموقفَ الَّذي وقفه عمرُ رضي الله عنه وهو يُكَلِّم النَّبيَّ ﷺ في مضمون تلك الشُّروط، وما كان من إجاباتِ الرَّسولِ ﷺ له وللمسلمين المتَّسِمَةِ بالحكمة وبُعْدِ النَّظرِ وتركِ الاستعجالِ، والدَّاعيةِ إلى وجوب الثِّقة بالله، وفي

وعدِه بنَصْرِ المؤمنين والتَّحَلِّي بالصَّبر والاحتسابِ.

قَالَ البخاري: «...قال: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ الله ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: «**بَلَى**»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: «**بَلَى**»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ ـ وفي روايةٍ: «قال عمر: لَقَد دَخلَني أمرٌ عَظيم، وراجَعتُ النَّبيَّ ﷺ مراجعةً ما راجعتُهُ مثْلَها قَط»، وفي رواية: «كان الصَّحابة لا يَشُكُّون في الفتح لرُؤيا رآها رسُولُ الله ﷺ، فلمَّا رَأَوْا الصُّلحَ دخلَهم من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتَّى كادوا يَهلكُون» ـ قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي**»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَى؛ فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**»، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ الله ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِه ـ والمراد به التَّمسُّك بأمره وتركُ المخالفةِ له كالَّذي يُمسِكُ بركب الفارس فلا يُفارقه ـ فَوَالله إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

وفي جواب أبي بكر لعُمَرَ بنظيرِ ما أجابه النَّبيِّ ﷺ دلالةٌ على أنَّه كان أكملَ الصَّحابة وأعرفَهم بأحوالِ رسولِ الله ﷺ وأعلمَهم بأمور الدِّين وأشدَّهم موافقةً لأمر الله تعالى ـ؛ قَالَ الزُّهْرِيُّ: «قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا» ـ في رواية: «فقال عمر: اتَّهموا الرَّأيَ على الدِّين، فلقد رَأَيْتُنِي أردُّ أمرَ رسولِ الله ﷺ برأيي، وما ألومُ عن الحقِّ»، وفي رواية: «وكان عمر يقول: ما زِلْتُ أتصدَّق وأصوم وأصلِّي وأَعْتِقُ من الَّذي صَنَعْتُ يومئذٍ، مخافةَ كلامي الَّذي تكلَّمتُ به»

أهمُّ وأبرز وقائع حادثة الحديبية كما رواها بعضُ من حضرها من الصَّحابة ﷺ، والَّتي وإن كانت في ظاهرها استكانةً وإهانةً للمؤمنين؛ إلاَّ أنَّها في حقيقتها فتحٌ مبينٌ بَشَّرَ اللهُ به نبيَّه ﷺ.

عِبَرُهَا وعِظَاتُهَا كثيرةٌ أَبْرَزُهَا: أن يَسْتَيْقِنَ المسلمُ بقول الله وقول الرَّسول ﷺ، وإن كان في ظاهره على غيرِ مرادِه وعلى غيرِ مبتغاه، وفيه دعوةٌ إلى الصَّبر عند اشتداد استفزاز الكفَّار، فقد حصَل منهم استفزازٌ للمسلمين عند كتابة الصُّلح وبعد



كتابته، وممَّا حصل: محاولةُ ثمانين من قريشٍ مهاجمةَ المسلمين على غِرَّة، ثمَّ محاولةٌ أخرى في ثلاثين رجلاً، وقد أَسرَهُم المسلمُون، وانتظروا فيهم حُكمَ النَّبيِّ ﷺ الَّذي أمر بإطلاق سَراحهم[1].

وحصلت أمورٌ غيرُها تَحَمَّلَها النَّبيُّ ﷺ منها: رفض سُهيل كتابة «الرحمن» وأبدل ذلك بكتابة «باسمك اللَّهم»، ورفضُه كتابةَ محمَّد «رسول الله» وأبدلَ ذلك بكتابة: «محمد بن عبد الله»، واشترطت قريش أن يرجعَ المسلمون فلا يَعْتَمِرُوا هذا العام، بل يأتون في العامِ المقبل، كما اشترطت أن لا يأتيَ رجلٌ منهم إلى النَّبيِّ ﷺ إلاَّ ردَّه ولو كان قَدِمَ لأجل الإسلام، وفي هذا بيانٌ للسِّياسةِ الشَّرعيَّة الَّتي ينبغي أن يَتَحَلَّى بها الإمامُ الأعظمُ أو من كان دونَه، وفيه كذلك حُسْنُ تربيةِ الأتباع على حُسن الظنِّ بالله والثِّقة المطلقةِ بوَعده.

وبينما هم كذلك إذ دخل أبو جَنْدَل بنُ سُهَيل بنِ عَمْرٍو يَرسُف في قيودِه، وقد خرج من أسفل مكَّةَ حتَّى رمى بنفسه بين أَظْهُرِ المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمَّد أوَّلُ من أُقاضيك عليه أنْ تردَّه إليَّ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَةَ بَعْدُ**».

فقال سهيل: «والله إذًا لم أُصالحك على شيءٍ أبدًا»، وأمضى النَّبيُّ ﷺ ما أراد سهيل؛ الله أكبر!.. إنَّه الوفاءُ ولو مع المشْرِك.

سبحانَ الله! فالنَّبيُّ ﷺ، وهو «وليُّ أمر المسلمين» يُطلِقُ سراح من يحاول قتلَ المسلمين من الكفَّار، ويسلِّم أبا جَندل لهم، وأبو جَندل ينادي في المسلمين بعدما أُمضيت رغبةُ سُهيل وشُروطه: «يا مَعشَر المسلمين! أَتَرُدُّوني إلى أهلِ الشِّرك فيَفتِنُوني في دِيني».

ومن عِظات صُلْحِ الحديبية: أنَّ الصُّلحَ لا يأتي إلاَّ بالخير كما قال تعالى: ﴿**وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ وأنَّ الجنوحَ للسِّلم وابتغاءَ الهُدْنَةِ من محاسنِ تعامُل المسلمين مع غيرِهم إذا لم يُكسِبْهم ذُلاًّ أو يُفَوِّت عليهم عِزًّا، كما قال تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**﴾ [الأنفال: ٦١].

والدَّليلُ على ذلك دعوةُ النَّبيِّ ﷺ قريشًا إلى الصُّلح الَّذي به تُعَظَّمُ حُرماتُ الله وتُحفظُ الدِّماءُ والأموالُ والأعراضُ حيثُ قال ﷺ: «**لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»، قال الخطَّابي: «معنى تعظيمِ حُرُماتِ الله في هذه القصَّةِ تَركُ القتالِ في الحرم، والجُنوح إلى المُسالمة، والكفِّ عن إراقةِ الدِّماء»[3].

وقد ظهر أثرُ هذا الصُّلح المبْرَم بين النَّبيِّ ﷺ

وقريش، وكان للإسلام والمسلمين فيه النِّصيبُ الأوفرُ، وبه تَحَقَّقَ النَّصرُ الأكبرُ بعد أن كَرِهَهُ جماعةٌ منهم وضاقت أنفسُهم به، وقد جعلَ الله فيه خيرًا كثيرًا ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ ـ في رواية: «فلمَّا انتهى إلى النَّبيِّ ﷺ جرى بينهما القولُ حتَّى وقع بينهما الصُّلحُ على أن تُوضع الحربُ بينهما عشرَ سنين وأن يَأمَنَ النَّاسُ بعضُهم بعضًا، وأن يَرْجِعَ عنهم عامَهُم هذا».. ولمَّا كانت الهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الحربُ وأَمِنَ النَّاسُ، كَلَّمَ بعضُهم بعضًا، والْتَقَوْا وتَفَاوَضُوا في الحديث والمنازعةِ ولم يُكَلَّمْ أحدٌ بالإسلام يَعقِلُ شيئًا في تلك المدَّة إلاَّ دخلَ فيه، ولقد دخل في تَيْنِكَ السَّنتين مثلُ منْ كان في الإسلام قبلَ ذلك أو أكثر ـ يعني من صَنَادِيدِ قُريش ـ، وكان في الصُّورة الظَّاهرة ضَيْمًا للمسلمين وفي الصُّورة الباطنة عِزًّا لهم، فإنَّ النَّاس لأجل الأمن الَّذي وقعَ بينهم اختلَط بعضُهم ببعض من غيرِ نَكِيرٍ، وأسمعَ المسلمون المشركينَ القرآنَ، وناظروهم على الإسلامِ جهرةً آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلَّمون عندَهم بذلك إلاَّ خُفْيَةً، وظهر من كان يُخفي إسلامَه؛ فذلَّ المشركون من حيث أرادوا العِزَّةَ وقُهِرُوا من حيث أرادوا الغَلَبَة.

ومن عظات صُلح الحديبية: أنَّ الله أنزل في شأنِها قرآنًا يُتْلى إلى يوم الدِّين، ليبقى أثرُ ذلك الدَّرسِ في قلوب المسلمين يَفْزَعُونَ إليه ويهتدون بحُكْمِه وحِكَمِهِ كلَّما تَعَرَّضُوا في معاملتهم إلى شَبيهِ ما وقع لأسلافهم، وهذا إثْرَ رجوع النَّبيِّ ﷺ ومن معه إلى المدينة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١] الآيات.

فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عمر رضي الله عنه فأقرأه إيَّاها، فقال: يا رسول الله! أو فَتْحٌ هو؟ قال: «نَعَمْ»، فطابت نفسُه ورجع.

يقول الشَّاطبيُّ ـ رحمه الله ـ: «فهذا من فوائدِ الملازمَة والانقيادِ للعلماءِ والصَّبرِ عليهم في مَواطِنِ الإشكالِ حتَّى لاَحَ البرهانُ للعَيَانِ».

فالزم أخي الكريمَ غَرْزَ هؤلاء، وَسِرْ على نهجهم، وإيَّاكَ وَبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ ومَن على رؤوسِها من المتعالمين المغرورين.

«وفيه: قال سهل بن حنيف رضي الله عنه يوم صَفِّين:

«اتَّهموا رأيَكُم، والله لقد رَأَيْتُنِي يوم أبي جَندل ولو أنِّي أستطيعُ أن أرُدَّ أمرَ رسول الله لرَدَدْتُهُ»؛ وإنَّما قال ذلك لِمَا عَرَض لهم فيه مِن الإشكالِ، وإنَّما نزلت سورةُ الفتح بعدما خالطهم الحزنُ والكآبةُ لشدَّة الإشكالِ عليهم والْتِبَاسِ الأمرِ، ولكنَّهم سلَّمُوا وتركوا رأيَهم حتَّى نزل القرآنُ، فزال الإشكالُ والالتباسُ، وصار مثلُ ذلك أصلاً لمن بعدَهم، فالْتَزَمَ التَّابعون في الصَّحابة سيرَتَهم مع النَّبيِّ ﷺ حتَّى فَقِهُوا ونَالُوا ذَرْوَةَ الكمالِ في العُلوم الشَّرعيَّة»[2].

أين هذا من أولئك الَّذين سفكوا الدِّماء واسْتَحَلُّوا الحرمات وَرَوَّعُوا الآمنين بحجَّة نصرة المسلمين والغَيْرة للإسلام والدِّين، وبدعوى الجهاد في سبيل الله؟!!

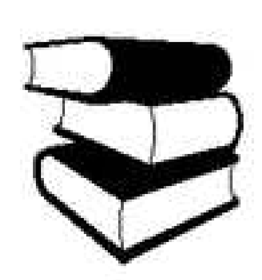
إذًا فمن أهمِّ الدُّروس المستفادة أنَّك إذا لم يحتمل عقلُك وغَيْرَتُك وحماسُك أمرًا مَا، فلا تذهب إلاَّ إلى العلماء الرَّاسخين الذين جاءت أوصافُهم في الشَّريعة؛ فإنَّ هذا الأمرَ دينٌ فلينظرْ أحدُكم عَمَّنْ يَأْخُذُ دينَه، وإذا بَانَ لك موقفُ العلماء الرَّاسخين فالْزَمْ غَرْزَهُمْ، وإنْ خالَفْتَهُم فاتَّهِم رأيَك وإن بلَغ إيمانُك وعلمُك ما بلغ، وإذا فعلتَ ذلك فأبشرْ بفتحٍ ونصرٍ أوَّلُه التزامُ الصِّراط المستقيم والهَدْيِ القويم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّه المصطفى الكريم.

(١) مسلم (٣/ ١٤٤٢)، أحمد (٤/ ٨٦).

(٢) «الموافقات» (١/ ١٤٣ـ ١٤٤).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٣٦).



إصلاح النفوس

(دوره وأهميته)

عمر الحاج مسعود

إنَّ اللهَ جلَّ وعلا بعث الأنبياءَ والمرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام وأنزل الكتبَ وشرع الأحكامَ لتطهير القلوب من أَدْرَانِها وتزكيةِ النُّفوس من أَوْضَارِهَا، وأصلُ ذلك وأساسُه توحيدُ الله وعبادتُه وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فلا سعادةَ للعبد ولا صَلاَحَ لقلبه ونفسه إلاَّ بتوحيد ربِّه وعبادته ومحبَّته وتعظيمه وخوفه ورجائه، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢][1].

وقال عزَّ وجلَّ مُبَيِّنًا وظيفةَ نبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

يُزَكِّيهم: يطهِّرُهم من الشِّرك والجهلِ والبدعة والأعمال الفاسدةِ والأخلاق القبيحةِ والصِّفات الذَّميمة، ويُنَمِّي نفوسَهم بالتَّوحيد والطَّاعة والأخلاق الحسنة.

ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ؛ أي القرآن والسُّنَّة، فبالعلم والتَّزكية ـ وإن شئتَ قلتَ: «التَّصفية والتَّربية» ـ تَطْهُرُ قلُوبُهم وتَزْكُو نفوسُهم وتَصْلُح أعمالُهم وتَحْسُن أخلاقُهم، ولهذا لَمَّا هاجر بعض الصحابة ﭫ إلى الحبشة سألهم النَّجَاشيُّ عن دينهم، فقال له جعفر بن أبي طالب ﭬ: «أيُّها الملِك كنَّا قومًا أهلَ جاهليةٍ نعبُد الأصنامَ، ونأكل الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونُسِيءُ الجوارَ، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيفَ، فَكُنَّا على ذلك حتَّى بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبَه وصِدْقَه



وأمانتَه وعَفَافَه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبدَه ونخلعَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤُنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرنا بصِدق الحديثِ، وأداء الأمانةِ، وصلة الرَّحِمِ وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارمِ والدِّماءِ، ونهانا عن الفواحشِ وقولِ الزور...»[٢].

وقام النَّبِيُّ ﷺ بهذا العمل ـ إصلاح النُّفوس ـ أحسنَ قيام وأكملَه وأتمَّهُ حتَّى صار جيلُ الصَّحابة ﭫ أعظمَ النَّاس عِلْمًا وأكملَهم إيمانًا وأبَرَّهُم قلوبًا وأتقنَهم عَمَلاً وأحسنَهم خُلُقًا، وجعل الله منهم خيرَ أمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاس، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إنَّ إصلاحَ النُّفوس وتربيتَها بالعلم النَّافع والعملِ الصالح والتَّوحيدِ والسُّنَّةِ أصلٌ في بِنَاءِ المجتمع على منهاج النبوَّة.

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم وجدنا انحرافًا كبيرًا في عقيدتهم وأخلاقهم، ورأينا فسادًا عريضًا في عباداتهم ومعاملاتهم، فيتعيَّن على أهل العلم وطلبته ـ وهم المصلحون حقًّا ـ تعليمُ النَّاسِ عقيدتَهم وعباداتِهم وجميعَ أمورِ دينهم، وتحذيرُهم من الأهواء المضِلَّة والفِتَنِ المهلكة، وإصلاحُ الفساد الواقع في العقيدةِ، مثل: عبادةِ القبور ودعاءِ الموتى ومعاملةِ السَّحرةِ والمشعوذين، وإزالةُ الآفات الاجتماعيَّة الَّتي عمَّتْ وأعْمَتْ، مثل: الرِّبَا والزِّنَا والرِّشوة وتعاطي المخدِّرات...، وتصحيحُ المفاهيم الخاطئةِ المتعلِّقة بمسائل الإيمان والكفر، والسُّنَّةِ والبدعةِ، والولاء والبراء، والمعروفِ والمنكر... حتَّى تُفْهَم فهمًا صحيحًا يُوافق الكتابَ والسُّنَّةَ بفهم سَلَفِ الأمَّةِ.

إنَّ الإصلاح هو عمليَّةُ إنقاذ النُّفوس والقلوب من ظُلمات الجهل والشِّرك والبدعة والمعصية إلى نور العلم والتَّوحيد والسُّنَّةِ والطَّاعة، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وبذلك تَعْمُرُ البواطنُ بالإيمان والتَّقوى والإخلاص والمراقبة والمحبَّة والخوف والرَّجاء، وتصلحُ الظَّواهر بالعمل بالشريعة السَّمْحَةِ والسُّنَّةِ المطهَّرة، وتظهر عليها الأخلاقُ الحسنةُ والمعاملاتُ الطَّيِّبَة، قال الله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

وقال النبي ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»(٣).

إنَّ إصلاح الفرد والمجتمع والأمَّة هو السَّبَبُ في رجوع مَجْدِ المسلمين الأصيل، وعَوْدَةِ عِزّهم الأثيل، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٠٨]، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»(٤).

وهو سببٌ كذلك لنيل الرِّفعة والشَّرفِ والبعدِ عن الهلاك والتَّلَفِ، وانتشار الأمن والسَّلام وحلول الأمان والوِئام، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقال النبي ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(٥).

وجاء تفسير الغرباء عند غير مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قيل: مَنْ هُم يا رسول الله؟ قال: «الَّذِينَ يَصلُحُون إذَا فَسَدَ النَّاسُ»(٦).

وهو سبيل النَّصْرِ والتَّمْكين والانتصار على أعداء الدِّين، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٠٧]، وقال النَّبي ﷺ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ»(٧).

وهو كذلك سبيلُ النَّجاة من الفِتَنِ وطريقُ السَّلامة من المحَنِ، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ



﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦ - ١١٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[٨].

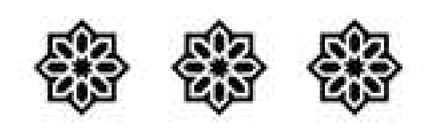
إنَّ شخصيةَ المسلم المنشودَةَ ومكانَتَه المفقودةَ لن تعود إلاَّ بالصَّلاَحِ والإصْلاَحِ بالمعنى الشرعيِّ الصَّحيح، ومن رَامَ الوصولَ إلى ذلك دونَ تحقيقِ التَّوحيدِ الخالصِ والعبادةِ الصَّحيحةِ والأخلاق الحسنةِ والاجتماعِ على الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمَّة، فَمَرَامُهُ ضَرْبٌ مِنَ المُحَالِ، وسُؤالُه نوعٌ من الخيالِ.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وصدَق إمامُنا مالك، إمامُ دار الهِجْرَةِ - رحمه الله -، حيث قال في كلمتِه الذَّهبيَّة:

«لا يصلح آخرُ هذه الأمَّة إلاَّ بما صَلَح به أوَّلها».

فنسأل الله العظيمَ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا صالحين مُصلحين هداةً مُهْتَدِين، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ونبيِّه محمَّد وعلى آله وصَحْبِه أجمعين.



---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٤)، «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (رقم ١٧٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢).

(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (١٤٥).

(٦) انظر: «الصحيحة» (١٢٧٣).

(٧) أخرجه البخاري (٢٨٩٦)، والنَّسائي (٣١٧٨) واللَّفظ له.

(٨) رواه أحمد (٢٣٦٢٠)، والتِّرمذي: (٢١٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن».

فتاوى شرعية

محمد علي فركوس

حكم عبارة الشريعة صالحة لكل زمان ومكان

* **السُّؤال:** ما رأيكم في عبارة القائل: «إنَّ الشَّريعة صالحةٌ لكلِّ زمان ومكان»؟

* **الجواب:** الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على مَنْ أرسلَه اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فهذه العبارةُ مُتَوَقِّفَةٌ على إرادةِ قائلِها، فإنْ قَصَدَ خُلُو الشَّريعةِ منْ فسادٍ في ذاتِها فيجوز أنْ يُعَبَّرَ عنها بالصَّلاحِ؛ لأنَّه ضدُّ الفسادِ: وهو سُلُوكُ طريقِ الهدَى، وصَلَحَ يَصْلُح مِنَ الفعلِ اللاَّزِمِ أو القَاصِرِ الذي لا يتعدَّى محلّه، أي: خَلاَ عنه الفسادُ أو زال عنه، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، والصَّالحُ هو: المستقيمُ الحالِ في نفسه، الخالصُ من كلِّ فسادٍ[١].

أمَّا إنْ قَصَدَ أنَّ أوضاعَ الزَّمانِ وهيئاتِه لا يُصْلِحُها إلا الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ، فالتَّعبير بالإصلاح أَوْلَى وأَنْسَبُ؛ لأنَّه ضدُّ الفساد والإفسادِ، فأَصْلَحَ يُصْلِحُ من الفعل المُتَعَدِّي بالهمزةِ، منْ إصلاحِ الشَّيءِ، أي: أزالَ الفسادَ عنه، والمصْلِحُ هو: المستقيمُ الحالِ في نفسه، المزيلُ الفسادِ عن غيره، فيقال: أصْلَحَ ذاتَ البَيْنِ أي: أزالَ ما بَيْنَهُمَا من عداوةٍ وشقاقٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وعلى هذا المعنى فالتَّعبيرُ بالصَّلاح قَاصِرٌ، وإنَّما



المناسبُ الأكملُ في الجملةِ السَّابقةِ التَّعبيرُ عنها بلفظِ الإصلاح لقوله تعالى عن شُعَيْب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، فيقال: «الشَّريعةُ مُصْلِحَةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ».

والعلم عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبِه وإخوانِه إلى يومِ الدِّين وسلَّم تسليمًا.

حكم القول للمخلوق: «تَوَكَّلْتُ عَلَيْكَ»

* **السُّؤال**: مِن أنواع العبادة «التَّوكُّل» فهل يجوز أنْ أقول لأحد «توكَّلت عليك»؟

* **الجواب**: الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسَّلام على مَنْ أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فلا يقول: «تَوَكَّلْتُ عَلَيْكَ» وإنَّما يقول «وَكَّلْتُكَ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى الله»؛ لأنَّ التوكُّل هو اعتمادُ القلب على الله في جَلْبِ المنافع ودفع المضارِّ مع الثِّقة بالله وفعل الأسباب، والتوكُّلُ بهذا الاعتبار خاصٌّ بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل الله التَّوكُّل عليه في الآيتين شرطًا في الإيمان والإسلام.

أمَّا المسائلُ التي تدخل تحت قدرةِ العبد، فتجوز نيابته فيها عليها كالبيع والشِّراء ونحوهما لكونها من جملة الأسباب؛ لكنَّه لا يعتمد على وكيله في حصول ما وكَّل إليه فيه، وإنَّما يتوكَّلُ على الله في تحصيل المراد وتيسير أمره أو أمر نائبه.

وعليه؛ فإنَّ الوَكَالَةَ تُعَدُّ من جملة الأسباب، والأسبابُ لا يُعتمد عليها وإنَّما يُعتمد على مُسَبِّبِ الأسباب وخالقِ السَّبَبِ والمسَبَّبِ وهو الله جلَّ وعلا.

والعلمُ عند الله تعالى، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين.

في الاستسقاء بالأنواء ومدى جواز تسمية المطر بالنوء

* **السُّؤال**: يُسَمِّي النَّاسُ ـ في منطقتنا ـ المطرَ بالنَّوْءِ، فما حكم الاستسقاء بالأنْواء؟ وهل يجوز التَّعبير بهذه التَّسمية مع الاعتقاد بأنَّ المطرَ من الله تعالى؟

* **الجواب**: الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله

وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فمسألة الاستسقاء بالأنواء يختلف الحكمُ فيها باختلاف المعتقد في النَّجم الطَّالع والغارب، فإن اعتقد أنَّ النَّجم مؤثِّر بذاته، أي هو الفاعلُ دونَ الله تعالى أو معه في إنزال المطر، فهذا شِرْكٌ أكبرٌ في الرُّبوبيَّة، وإن توجَّه إليه بالدعاء والعبادة كان شركًا أكبر في الألوهية، ولا يخفى أنَّ الشِّرك في الألوهيَّة يتضمَّن الشِّرك في الرُّبوبية؛ لأنَّه ما توجَّه إلى النُّجوم بالدُّعاء إلاَّ لاعتقاده أنَّها فاعلةٌ ومؤثِّرَةٌ تدفع الأضْرَار وتقضي الحوائجَ، فمثل هذا الشِّرك ينافي التَّوحيد.

أمَّا إذا اعتقد أنَّ المطْلَعَ النَّجْمِيّ سببٌ، وأنَّ منزِّل المطرِ هو الله سبحانه فهو شرك أصغرٌ، ينافي كمال التَّوحيد؛ لأنَّ الله تعالى لم يجعله سببًا لا بِنَصٍّ ولا تقدير.

هذا، وقد جاء من كلام العلماء التَّفريقُ بين باءِ السَّببيَّة في قولهم: «مُطرنا بنَوْءِ كذا»، والتعبير بـ «في» الظَّرفيَّة في قولهم: «سُقِينَا في نَوْءِ كذا»، أي في ذلك الوقت، ويجوز التَّعبير بالظَّرفيَّة دون السَّببيَّة؛ لأنَّه ليس فيها نسبة المطر إلى النَّجم، بخلاف باء السَّببيَّة، فإنَّ في التَّعبير بها نسبة المطر إلى الطَّالع أو الغارب، فلا يجوز ولو من باب التَّساهل في التَّعبير.

وبناءً عليه فإنْ أُطْلِقَ النَّوْءُ على وَقْتٍ جرَت عادةُ الله تعالى في أنْ يأتِيَ المطرُ في تلك الأوقات جازَ من غير اقترانه بالاعتقاد السَّابق.

أمَّا إذا تعارف أهلُ منطقة إطلاقَ النَّوْءِ على ذات المطر من غير التفاتٍ أصلاً إلى الطَّالع والغارب من النَّجم وغَلَبَ عُرْفُ استعمالهم فيه، فأرجو أن يجوز ذلك من غير حَرَجٍ، إن شاء الله تعالى.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

في حكم التداوي بما يعرف بـ: "القطيع"

* **السُّؤال**: هل يجوز التَّداوي بما يُسَمَّى بالعامِّيَّة: «القطيع»؟

* **الجواب**: الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإنْ كان التَّداوي بما يُسَمَّى بـ «القطيع» على وجه الرُّقيةِ الشَّرعيَّة بالقرآن الكريم، والأذكار النَّبويَّة والأدعيَة المأثورة الثَّابتة، وسَلِمَتْ رقيتُه من الشِّرك، والكلامِ الَّذي لا يُفهم معناه، ولم تُسْتَصْحَبْ باعتقادِ تأثيرها بذاتِها إلاَّ بتقديرِ الله تعالى، فإنَّ هذه الرُّقيةَ جائزةٌ شرعًا لما ثبتَ عن النَّبيِّ



ﷺ أنّه قال: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»[٢]، وبقوله ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ»[٣].

أمَّا التَّداوي بـ: «القطيع» على وجهٍ يُقْطَعُ به الدَّاء ببعض الطُّرقِ التي يستعملها بعضُ الرُّقاةِ كأنْ يضعَ أوراقَ الصَّبَّارِ مُنْتَزَعَة الأشْواكِ تحت رِجْلِ المريض لعلاج مَرَض الظَّهر والرِّجلين والمفاصل، ثمَّ يقطع الصَّبَّارَ ويُعلِّقُ ذهاب الأذى وزوالَ المرض بجفاف ورقِ الصَّبَّار المقطوع، أو يضع عِيدانًا من قَصَبٍ خُضْرٍ للمريض يدْلكُهُ برِجْله قَصْدَ الاستشفاء من مرض عِرْقِ النّسا، ثمَّ يحتفظ بها المريض في بيته حتَّى تيْبَس ويعلِّق شفاءَه على جفوفها، أو يضع سِكِّينًا ساخنًا يمرِّرُه على رأس المريض ثلاث مرَّات أو سبع مرَّات، وقد يجرح الرَّاقي يدَ المريض، ويَحُكُّ مكان الجرْحِ بِبَصْلَةٍ ونحوها على وجه يقطع به مرض «الصَّفراء»، فإنَّ هذه الطُّرق وأشباهها ألصقُ حكمًا بالمنع، ولعدم ثبوتِها عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قام بفعلها لنفسه أو أمَرَ بها لغيره، أو رخَّص فيها لأمَّته مع وجود المقتضي لفعله وتوافر الدَّواعي لنقله، وخاصَّةً مع تعليق الشِّفاء على اليبس والجفاف، فإنَّ فيها إضاعةً لحقِّ الله في تعلُّق القلب به سبحانه، وفي فعل المشروع غُنْيَة عن غيره، ومن اسْتَغْنَى بما شرَع الله أغناه الله عمَّا سواه.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

في صحة استعمال عبارة: «جَابْ لِي رَبِّي»!

* **السُّؤال:** ما حكمُ كلمة: «جَابْ لِي رَبِّي»؟

* **الجواب:** الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين أمَّا بعد:

فعبارةُ: «جَابْ لِي رَبِّي» وإن كان مُرَادُها عند المتكلم هو: «ما خَطَر ببالي» إلاَّ أنَّ هذه العبارة في حدِّ ذاتها خطأٌ، إذ هي مأخوذةٌ من عبارات المتصوّفة الَّذين يعتقدون أنّ من مصادر التَّلقِّي: الإلهام من الله مباشَرة، ويجري على لسانهم «حدّثني قلبي عن ربي» حيث يأخذون العلم من الله مباشرة ـ كما يزعمون ـ ولذلك يجعلون مقامَ الصوفيِّ فوق مقامِ النَّبيِّ؛ لأنّ النَّبيَّ عندهم يأخُذ العلمَ من المَلَك الَّذي يوحي به إليه بخلاف الصُّوفيِّ فيأخذه من الله

مباشرة بواسطة الإلهام، ومن مصادر التَّلقِّي عندهم أيضا سماع خطاب الله تعالى أو الملائكة أو الجنّ الصالح أو أحد الأولياء عن طريق الهواتف في اليقظة أو في المنام أو في حالة بينهما بواسطة الأُذن، ولا يخفى أنّ هذا الانحراف المخْتَلط بالفلسفات الهنديّة واليونانيّة والرهبانيّة شَوَّهَ جمالَ الإسلام وصفاءَ عقيدتِه وحالَ دون تقدُّم المسلمين، لأجل ذلك ينبغي تجنّب استعمال مثل هذه العبارات.

والله أعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين وسلم تسليما.

ما حكم قولهم: «عَيْبٌ خَلْقي»؟

* **السؤال**: ما حكمُ قولِ بعضِهم: «عَيْبٌ خَلْقي»؟

* **الجواب**: الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فلا ينبغي وصف العيب بأنَّه خَلْقِي في استعمال عبارة «عيب خَلْقِي» لما فيه من إضافة العَيْبِ ونسبتِه إلى الخالق عزَّ وجل، والله سبحانه هو المتَّصف بالكمال في ذاته وصفاته وأفعاله، وكلُّ خلقِه سبحانه حَسَنٌ، لأنَّه ما من شيء إلاَّ وهو مخلوقٌ على ما تقتضيه حكمةُ الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقال ﷺ: «كُلُّ خَلْقِ الله حَسَنٌ»[(٤)]، وإنَّما العيب يضاف إلى ذاتِ العضوِ أو من يتَّصِف بِهِ لا الخالقِ سبحانه، فيقال مثلاً: عيبٌ عضويٌّ، أو تَنَاسُلِيٌّ، أو جسمانيٌّ، أو صَدْرِيٌّ، أو هَضْمِيٌّ، وتُتْرَك العبارةُ السَّابقة تأدُّبًا مع الله تعالى.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

---

(١) «التعريفات» للجرجاني: (١٣١)، «الكليات» لأبي البقاء: (٥٦١).

(٢) أخرجه مسلم في السلام (٥٨٦٢)، وأبو داود في الطب (٣٨٨٨)، والحاكم في «المستدرك»: (٧٥٩٣)، والبيهقي (٢٠٠٨١)، من حديث مالك بن عوف الأشجعي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٥٨٦١)، وأحمد (١٤٧٥٦)، والبيهقي (٢٠٠٧٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد (١٩١٣٠)، والحميدي في «مسنده»: (٧٨٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ٢٨٧)، من حديث الشريد بن سويد رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة»: (١٤٤١).



جوانب الإصلاح
في دعوة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

محمد لوزاني

هذه نبذةٌ مختصرةٌ وكلمةٌ موجزةٌ عن المكانةِ العلميَّة التي تَبَوَّأَهَا العلاَّمةُ الشَّيْخُ محمَّد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ مع بيان بعضِ آثاره وأعماله الإصلاحيَّة التي خلَّفها بعده.

فهو ـ رحمه الله تعالى ـ علاَّمةُ المغرب العَرَبِيِّ بحقٍّ، وأحدُ أئمَّة النَّهضةِ العلميَّة في العالم الإسلاميِّ، ورائدٌ من روَّاد الإصلاح في القُطْرِ الجزائريِّ، وهو من الأفْذَاذِ المعْدُودِينَ يَعِزُّ أن يُوجد له نَظِيرٌ في العِلم والعَمل، ولا يكاد يكون في كلِّ زَمانٍ مثلُه إلاَّ في فترات من الدَّهر ليكون جَذْوَةً وسِرَاجًا منيرًا يَهْتَدِي به المصلحون، وشِهابًا ثاقبًا على الباطل وأهلِه، يفضح مكرَهم وتلبيسَهم، ويكشف شُبُهَاتِهم، فَيَذَرُهَا عاريةً باديةً للعَيَانِ، لا يُوَارِي زَيْفَهَا ولا يستُرُ زُخرفَها حجابٌ، ليَحْيَى من حَيَّ عن بَيِّنَة ويَهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنَة.

*** الظُّروف التي ظهرت فيها دعوة الشَّيخ البشير الإصلاحية:**

لقد ظهر صَوْتُ هذا العالم الكبيرِ والدَّاعية المصْلِحِ الحكيم في مرحلةٍ تاريخيَّة حاسمةٍ، قد أخنى فيها الاستعمار الفرنسيُّ على الجزائر وتمكَّن منها، وأفرغ فيها جميعَ شرورِه، وسَدَّ في وجهها جميعَ أبواب التَّطوُّر والرُّقِيِّ، فأضعف الدِّين في النُّفوس ونشرَ الفسادَ في المجتمع، وعَمَد إلى تجهيل النَّاس وخَنْقِ الأنْفَاسِ، وقَطْعِ الصِّلاتِ بين الجزائر وجيرانِها، ولا توجد كلمةٌ أصدق في التَّعبير عن حقيقته، وكشف أهدافه وغاياته من كلمة البشير نفسِه حيث يقولُ: «جاء الاستعمار الفرنسيُّ إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراضُ الوافدةُ، تحمل الموتَ وأسبابَ الموت»[1]

ويقول في موضع آخر في بيان حقيقة الاستعمار وأعماله في الجزائر:

«والاستعمار سُلٌّ يحاربُ أسبابَ المَنَاعَةِ في الجسم الصَّحيح، وهو في هذا الوَطَنِ قد أدَارَ قَوانينَه على نَسْخِ الأحكامِ الإسلاميَّة، وعَبَثَ بحُرْمَةِ المعابِدِ، وحارب الإيمانَ بالإلحاد، والتَّعليم بإفْشَاءِ الأميَّة، والبيانَ العربيَّ بهذه البَلْبَلَةِ الَّتي لا يستقيم معها تعبيرٌ ولا تفكيرٌ»[٢]

لقد عمل المستعمرُ جادًّا على تحقيق تلك الأهداف الخبيثة والغايات الدَّنيئة، وسَخَّر في سبيل ذلك كلَّ ما تحت يده من إمكاناتٍ ووسائلَ حتَّى ظَنَّ أنَّ شُعْلَةَ الإسلام قد انْطَفَأَتْ في هذا الوطن، وأنَّ لغةَ القرآن الكريم قد اخْتَفَتْ من الوجود وإلى الأبد، ولكن هَيْهَاتَ فأنَّى لمخلوق ضعيفٍ أن يُطْفِئَ نورَ الله بفَمِهِ أو مَكْرِهِ، وقد أَبَى الله إلاَّ أنْ يُتِمَّهُ ولو كَرِه الكافرون.

فكان من البَدَهي في ذلك الظَّرفِ العصيب الاهتمامُ بالجانب الإصلاحيِّ للنَّهضة بالأمَّة، والعملُ على إصلاح ما أفسده الاستعمارُ لأنَّه لا يمكن التخلُّص من المستعمر مع بقاء أسباب وجوده وقوَّته في الأمَّة.

لذلك نَجِدُ الشَّيخَ ـ رحمه الله تعالى ـ اعتنى عنايةً عظيمةً بإصلاح ما أفسده الاستعمارُ واهتمَّ بذلك اهتمامًا كبيرًا، بل كان هو الهدفَ الرَّئيسيَّ الَّذي أُسِّسَتْ لأجله «جمعيةُ العلماء المسلمين» الّتي هو أحد أعضائها ونائبُ رئيسها، وفي ذلك يقول ـ رحمه الله ـ: «لَبِثَتْ عواملُ الاستعمار تَهدم من هيكلَ الإسلام ولا تَبْنِي، وترمي المقوِّماتِ الإسلاميَّةَ والخصائصَ العربيَّةَ في كلِّ يوم بفَاقِرَةٍ من المسْخِ، إلى أن تَكَوَّنَتْ جمعيةُ العلماء المسلمين الجزائريين منذ خمسةَ عشرَ عامًا، تَكَوُّنًا طبيعيًّا كأنَّه نتيجةٌ لازمةٌ لتلك الحالة، وقامت تعمل لإصلاح الإسلام بين المسلمين، وللمطالبةِ بحقوقه المغْصُوبة، وبحريَّةِ لغتِه المسْلُوبَة، وسمِع الاستعمارُ لأوَّل مرَّةٍ في حياته بهذه الدِّيار نَغْمَةً جديدةً لم تَأْلَفْهَا أُذُنَاه، تدعو إلى الحقِّ في قوَّة، وتُطالب بالإنصاف في مَنْطِقٍ، وأَحَسَّ دَبِيبَ الحياةِ والشُّعور الإسلاميّ، فلم ينظر إلى ذلك كلِّه على أنَّه حقٌّ طبيعيٌّ معقول»[٣]

* جوانب الإصلاح في دعوة الشَّيخ البشير الإبراهيميِّ:

يمكن تصنيف أعمال الشَّيخ الإبراهيميِّ الإصلاحيَّة تحت محورين كبيرين؛ محور الإصلاح الدِّينيِّ، ومحور الإصلاح الاجتماعيِّ، وهناك تَلازمٌ ضروريٌّ بين المحورين في نَظَرِهِ لتحقيق النُّهوض بالبلاد ثقافيًّا واجتماعيًّا فيقول ـ رحمه الله ـ:

«والحقيقةُ أنَّ هذه الجمعيَّة تعمل من أوَّلِ يومِ تكوينها للإصلاح الدِّينيّ والإصلاح الاجتماعيِّ، وكلُّ ذلك يَسَعُ الإسلامَ، وكلُّ ذلك يَسَعُهُ مدلولُها

ومضمونُها وقانونُها، فالإسلامُ دينُ اجتماعٍ؛ وإذا كانت دائرةُ الأوَّل محدودةً فإنَّ دائرةَ الثَّاني واسعةُ الأطراف، وإنَّ الإصلاح الدِّينيَّ لا يتمُّ إلاَّ بالإصلاح الاجتماعيِّ، ولهذا الارتباط بين القسمين، فإنَّ جمعيَّةَ العلماء عملت منذُ تكوينِها في الإصلاحَيْن المتلازمَيْن، وهي تعلم أنَّ المسلمَ لا يكون مسلمًا حقيقيًّا مستقيمًا في دينه على الطَّريقة حتى تستقيمَ اجتماعيَّتُه فيحسُنُ إدراكُه للأشياء، وفهمُه لمعنى الحياة، وتقديرُه لوظيفته فيها، وعلمُه بحظِّه منها، وينضُجُ عقلُه وتفكيرُه، ويُلِمُّ بزمانه وأهلِ زمانه، ويتقاضى من أفراد المجموعة البشريَّة ما يتقاضَوْنَه منهُ من حقوقٍ وواجباتٍ، ويرى لنفسه من العِزَّةِ والقوَّة ما يرونه لأنفسِهم، وتربط بينه وبينهم رابطةُ الأخوَّة والمساواة والمصلحة، لا رابطةَ السِّيادةِ عليه والاستئثارِ دونه»[٤].

المحور الأول ـ الإصلاح الدِّينيُّ:

إنَّ الغاية العظمى والهدفَ الأسمى من هذا الإصلاح هو إرجاعُ المسلمين إلى كتاب ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم ﷺ، وربطِهم بسَلَفِهم الصَّالحِ وماضِيهم المشْرقِ؛ لأنَّ حاضرَ الأمَّةِ ومستقبلَها إذا لم يُبْنَ على جذورٍ مَتِينَةٍ من الماضي لن يُثْمِرَ، فهو كشجرة هَشَّةٍ اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قَرَارٍ، أو كبنيانٍ أُسِّسَ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَيوشِكُ أن يَنْهَارَ.

فقد عمل الشَّيخ ـ رحمه الله ـ في هذا المجال على تحقيقِ ما يلي:

* تحرير العقول من الضَّلالات والأوهامِ في الدِّين والدُّنيا، وتحريرُ النُّفوس من تأليه الأهواء والرِّجال وفي ذلك يقول ـ رحمه الله ـ: «إنَّ تحريرَ العقول لأساسٌ لتحريرِ الأبدانِ وأصلٌ له، ومحالٌ أن يتحرَّرَ بَدَنٌ يحمل عقلاً عبدًا؛ إنَّ هذا النَّوعَ من التَّحرير لا يقوم به، ولا يقوَى عليه إلاَّ العلماءُ الرَّبَّانيُّونَ المصلحُون، فهو أثرٌ طبيعيٌّ للإصلاح الدِّينيِّ الَّذي اضْطَلَعَتْ بحمله جمعيةُ العلماء، عرَف ذلك من عرَفَه لها إنصافًا، وأنكرَه من أنكرَه عنادًا وحسدًا»[٥].

* إصلاحُ عقائدِ المسلمين وإراداتِهم لتصحَّ عباداتُهم وأعمالهم؛ لأنَّ العباداتِ هي أثرُ العقائدِ كما أنَّ الأعمالَ هي أثرُ الإرادات، فما انْبَنَى منها على الصَّحيح فهو صحيحٌ، وما انْبَنَى على الفاسدِ فهو فاسدٌ.

ويشرحُ الشَّيخُ ـ رحمه الله ـ الطَّريقةَ الَّتي يتمُّ بها ذلك فيقول: «إنَّ في الفقه فِقْهًا لا تصل إليه المداركُ القاصرةُ، وهو لُبَابُ الدِّين وروحُ القرآن، وعُصَارةُ سنَّةِ محمَّدٍ ﷺ وهو تفسيرُ أعماله وأقوالِه وأحوالِه ومآخذِه ومَتَارِكِه، وهو الَّذي وَرِثَهُ عنه أصحابُه وأتباعُهم إلى يوم الدِّين، وهو الَّذي يَسْعَدُ

المسلمون بفهمِه وتطبيقِه والعملِ به، وهو الَّذي يجلب لهم عِزَّ الدُّنيا والآخرة، وهو الَّذي نريد أن نُحْيِيه في هذه الأمَّة فتحيَا به ونُصحِّح به عقائدَها، ونقوِّم به فهومَها فتصِحُّ به عباداتُها وأعمالُها»[6].

* إصلاحُ ما أفسده التَّعصُّبُ المذهبيُّ، والجمودُ الفقهيُّ، والاقتناعُ والرِّضَا بالتَّقليد، وهو ما أبعد المسلمين عن الدِّين الحقِّ، ورمى بهم إلى مؤخِّرة الرَّكبِ بين الأُمم، وذلك بالرُّجوع بهم إلى المَوْرِدِ الصَّافي النَّقيِّ والمَنْهَلِ العَذْبِ الزُّلالِ المتمثِّل في كتاب الله تعالى وسنَّةِ رسوله ﷺ وَفْقَ الطَّريقةِ الَّتي سار عليها سلفُنا الصَّالحُ ﷺ من إيراد الدَّليل والتَّعليل في الفقهِ والفَتْوَى والتَّعليم.

يقول ـ رحمه الله ـ: «ولو أنَّ فقهاءَنا أخذوا الفقهَ من القرآنِ، ومن السُّنَّةِ القوليَّةِ والفعليَّةِ، ومن عملِ السَّلَفِ، أو من كتبِ العلماءِ المستقلِّين المستدلِّين الَّتي تَقْرِنُ المسائلَ بأدلَّتها، وتبيِّنُ حكمةَ الشَّارعِ منها، لكان فِقْهُهُم أكملَ، وآثارُه الحسنةِ في نفوسِهم أظهرَ، ولكانت سلطتُهم على المستَفْتِين من العامَّة أَمْتَنَ وأَنْفَذَ، ويَدُهم في تربيتِهم وتَرْوِيضِهِمْ على الاستقامةِ في الدِّينِ أعْلَى»[7]

المحور الثَّاني ـ الإصلاح الاجتماعيُّ:

من القضايا الاجتماعيّة الَّتي تَنَاوَلَها قلمُ الشَّيخ البشيرِ الإبراهيميِّ بالتَّمحيص والعلاج:

* قضيَّة الزَّواج والمغالاة في المهور، حيث صار أكثرُ الشَّباب يُعرضون عنه إلى سنٍّ متأخِّرٍ من العمر فيحدُث بسبب ذلك فسادٌ في الأخلاق والأعراض والأموال، وإذا ازدادت هذه الظَّاهرةُ انتشارًا وفُشُوًّا واستَحكَمت، فإنَّ الأمَّة تتلاشى وتندثر، فقال مبيِّنًا خطورةَ هذا الأمرِ وأهميَّةَ الإصلاح فيه:

«تُعاني الأمَّةُ الجزائريَّةُ وجاراتُها المتَّحدةُ معها في الدِّين والجنس،... عدَّةَ مشاكلَ اجتماعيَّةٍ، لا يسَع المصلِحين إغفالُها، ولا السُّكوتُ عليها بعد ظهور آثارِها وتحقُّقِ أضرارِها، وسَتُعَالِجُ «البصائر» طائفةً من أُمَّهاتِها، ببيان نتائجِها وبيانِ وجهِ الرَّأي في علاجِها... فإنَّ من بعضِ هذه المشاكلِ ما لو تمادى وامتدَّ لأتى بنيانَ الأمَّةِ منَ القواعدِ، وقضى عليها بالمسْخِ أوَّلاً، والتَّلاشي أخيرًا.

أَعْضَلُ هذه المشاكلِ، وأعمقُها أثرًا في حياة الأمَّة، وأبعدُها تأثيرًا في تكوينها، مشكلةُ الزَّواج بالنِّسبة إلى الشبَّان»[8].

فعمل على إزالة الأسباب الَّتي أدَّت إلى هذه الظَّاهرة، وهي في الغالب تعود إلى العوائدِ والتَّقاليدِ الفاسدة الَّتي بدَّلت حكمَ الله تعالى ونَسختْ سنَّةَ رسولِهِ ﷺ.

ومن تلك العوائدِ السَّيِّئةِ المغالاةُ في المهور، يقول ـ رحمه الله ـ:

«من أمراضِنا الاجتماعيَّة التي تنشرُ في أوساطنا الفسادَ والفتنَةَ، وتُعَجِّلُ بها إلى الدَّمار والفَنَاءِ ـ عَادَةً ـ المغالاةُ في المهُورِ... وقد كانت هذه القضيَّةُ ـ وما زالت ـ أهمَّ ما تَضَمَّنَهُ منهاجُنا في الإصلاح الاجتماعيِّ، فعالجناها بالتَّرغيب والتَّرهيب، وبيانِ ما تقتضيه الحكمةُ الشَّرعيَّة، وما يقتضيه الحكمُ الشَّرعيُّ، تناولناها في الخُطَبِ الجُمعيّة، وفي الدُّروس وفي المحاضرات العامَّة، وفي المقالات المكتوبة، وحملنا الحملاتِ الصَّادقة على العوائدِ التي لابَسَتْهَا، فأفسدَتْها حتَّى صيَّرت الزَّواج الَّذي هو ركنُ الحياة أعسرَ شيءٍ في الحياة»[٩].

* ومن القضايا الاجتماعيَّة التي عالجها كذلك: قضيَّة التَّعليم؛ لأنَّه هو مادَّةُ الإصلاح وأصلُه، فاهتَمَّ بإصلاح التَّعليم في داخل الوطن وخارجِه، فكان من أعماله السَّعيُ لإنشاء المدارس الحرَّةِ والمعاهدِ، وإرسالِ بعثاتٍ من الطَّلبة المتخرِّجين منها إلى المشرق لإكمال تحصيلهم العلميِّ ليتولَّوا بعد ذلك مهمَّةَ التَّعليم في بلدهم.

ولشِدَّةِ حرصه ـ رحمه الله ـ على نجاح هذه المهمَّة كان لا يغفلُ عن مراقبة الطَّلبة في مراحل تعليمهم في الخارج، مستعينًا بجمعيَّة المعلِّمين الَّتي أنشأتْها جمعيَّةُ العلماء المسلمين، وفي ذلك يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: «وجمعيَّة العلماء تعتقد أنَّه لا يتمُّ إصلاحُ التَّعليم في الدَّاخل إلاَّ إذا تَمَّ إصلاحُه في الخارج، لشدَّةِ الاتِّصال بينهما، ولأنَّ التَّعليم في الخارج هو الَّذي يغذِّي التَّعليمَ الدَّاخليَّ بالمعلِّمين، ومحالٌ أن يَنَالَ التَّعليمُ الدَّاخليُّ خيرًا من معلِّمين يتخرَّجون من المقاهي، ويحصِّلون معلوماتهم من الجرائدِ الحزبيَّة، ويتدرَّبون في ميادين الحزبيَّة على السِّباب، وتنقُّص التَّعليم، والتَّنكُّر للعلم...

إنَّ جمعيةَ المعلِّمينَ مصَمِّمَةٌ على أن تحوطَ التَّعليمَ في الخارج برَقابة تمدُّها على التَّلامذةِ، ونصائحَ تشتدُّ فيها، لِيَحْذَرُوا أولئك اللُّصوص، ولينقطِعُوا إلى العلم، وليضعُوا بين أعينهم الواجب الَّذي ينتظرُهم في وطنهم، وهو التَّعليم»[١٠].

* من الجوانب الإصلاحيَّة التي نالت اهتماماتِ الشَّيخ البشير الإبراهيميِّ ـ رحمه الله ـ، الإصلاحُ في باب السِّياسة، وهي جزءٌ من الإصلاح الاجتماعيِّ، فعمل على تصحيح مفهوم السِّياسة ببيانِ ما يدخل تحتَها من المعاني الصَّحيحة المقبولة والمعاني الفاسدة المرفوضة وذلك عند الحكَّام والمحكومين،

وإرشاد الطَّائفتين للَّتي هي أقوم من معانيها.

أما معناها عند الحاكمين فيقول فيه: «إنَّ أعلى معاني السِّياسة عند الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون والنِّظام، وحياطة الشُّعوب بالإنصاف والإحسان، فإذا نَزَلُوا بها صارت بمعنى التَّحيُّل على الضَّعيف لِيُؤْكَلَ، وقَتْلِ مُقَوِّمَاتِهِ لِيُهْضَمَ، والكيدِ للمستيقظِ حتَّى يَنام، والهَدْهَدَةِ للنَّائم حتَّى لا يستيقظ.

وهذا المعنى الأخير هو الذي جرى عليه الاستعمارُ، ووضعه في قوامِيسه وأقرَّه في موضعه من نفوسِ رجاله ودعاتِه بحيث إذا أطلق بينهم لفظُ السِّياسة لا يفهمون منه إلاَّ هذا... هذا معنى السِّياسة عند الحاكمين عاليًا ونازلاً»[11].

وأمَّا معناها عند المحكومين فيقول فيه: «فأعلى معانيها إحياءُ المقوِّماتِ الَّتي ماتت أو ضَعُفَتْ أو تَرَاخَتْ، من دين ولغة وجنس وأخلاق وتاريخٍ وتقاليدَ، وتصحيحُ قواعدِها في النُّفوس ثمّ المطالبة بالحقوق الضَّائعة في منطقٍ وإيمانٍ... مع اختيار الفُرَصِ الملائمة لكلِّ حالة، درجاتٌ بعضُها فوق بعض، فإذا نَزَلُوا بها صارت إلى هذا التَّحاسدِ على الرِّياسة وهذا التَّهافتِ على كراسِي النِّيابة، وهذه المناقشاتِ الفارغةِ في القُشُورِ، وهذا الجَدَلِ الشَّاتِمِ السَّبَّابِ، وهذا الافْتِتَانِ المُزْرِي بالأشخاص، وكلُّ ذلك نراه على أقبح صُوَرِهِ في المجتمعِ الجزائريِّ...»[12].

وخِتَامًا؛ أقول: إنَّ أعمالَ الشَّيخِ الإصلاحيَّةَ في هذه المجالات ذاتُ أَفْنَانٍ، لها فروعٌ وتفاصيلُ لا يمكن استقصاؤُها في هذه العُجالة، لذا اقتصرْتُ على ذكر أهمِّها وما يكونُ دليلاً على ما لم يُذكر منها فإنَّ: «ضَوْءَ البَرْقِ المُنِيرِ يُنْبِئُ عَمَّا وَرَاءَه مِنَ المَطَرِ الغَزِيرِ».

وسبحانك اللّهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(١) «عيون البصائر»: (ص٢١).

(٢) المرجع السابق: (ص٢٢).

(٣) «عيون البصائر»: (ص٢٢).

(٤) «آثار البشير»: (١/ ٢٨٣).

(٥) «عيون البصائر»: (ص٣٤).

(٦) المرجع السابق: (ص٢٠٣).

(٧) «عيون البصائر»: (ص٢٢٩).

(٨) المرجع السابق: (ص٣٢٥).

(٩) «عيون البصائر»: (ص٣٥٩).

(١٠) المرجع السابق: (ص٣٥٣).

(١١) «عيون البصائر»: (ص٣٩).

(١٢) المرجع السابق: (ص٤٠).





هذه قصيدة من بحر البسيط جادت بها قريحة الشاعر المفلق والأديب الألمعي الأستاذ عمارة أحمد قسوم ـ حفظه الله تعالى ـ نزيل الإمارات العربية المتحدة مستبشرا باللحاق بركب إخوانه في مجلة الإصلاح، فجزاه الله عنا كل خير.

يَا مَنْ يَرُومُ لِهَذَا الدِّينِ نُصْرَتَهُ ... أَتَبْتَغِي النَّصْرَ لِلإِسْلاَمِ عَنْ عَطَلِ

أَتَبْتَغِي العِزَّ لِلإِسْلاَمِ فِي ظُلَمٍ ... هَلْ يُنْصَرُ الدِّينُ فِي الظَّلْمَاءِ وَالجَهَلِ

فَالْبَسْ لِبَاسَ عُلُومٍ تَرتَقِي رُتَبًا ... وَصُنْ ذِهِ النَّفْسَ وَاحْذَرْ صَوْلَةَ الخَطَلِ

وَاسْلُكْ سَبِيلَ رَسُولِ اللهِ مِنْ عَرَبٍ ... أَهْلِ التَّفَوُّقِ وَالعَلْيَاءِ وَالدُّوَلِ

أَكْرِمْ بِهِ عَلَمًا تَسْمُو شَمَائِلُهُ ... وَأَشْرَف الخَلْقِ مَنْ يَعْلُو عَلى زُحَلِ

مُحَمَّدٍ أُوتِيَ الفُصْحَى بَلاَغَتُهُ ... قَدْ أَعْجَزَتْ مُضَرًا والجُلَّ مِنْ ثُعَلِ

مَنْ أُوتِيَ النُّورَ وَالفُرْقَانَ فِي حِقَبٍ ... دَعَائِمُ الشِّرْكِ تَعْلُو قِمَّةَ القُلَلِ

قَدْ هَدَمَ الكُفْرَ وَالإِشْرَاكَ شِرْعَتُهُ ... أَعْظِمْ بِهِ بَطَلاً فِي الحَادِثِ الجَلَلِ

تِيكَ الخُطُوبُ الَّتِي دَهْرًا يُجَابِهُهَا ... بِالصَّبْرِ وَالصِّدْقِ وَالإِخْلاَصِ وَالعَمَلِ

هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي أَبْدَتْ شَرِيعَتُهُ ... نَفْعًا عَمِيمًا كَنَفْعِ العَارِضِ الهَطِلِ

يَا مَنْ يُرِيدُ طَرِيقًا غَيْرَ مَنْهَجِهِ ... كَيْفَ الرُّقِيُّ لِلْعُلاَ وَأَنْتَ في خَلَلِ

كَيْفَ النَّجَاةُ وَمَا تَقْفُو مَعَالِمَهَا ... إنَّ النَّجَاةَ حَوَتْهَا شِرْعَةُ الرَّجُلِ

فَاقْرَأْ شَرِيعَتُهُ مِنْ رَبِّهَا كُلِئَتْ ... عَبْرَ القُرُونِ وَقَدْ صِينَتْ مِنَ الخَطَلِ

تَدْعُو إلى زِينَةِ الأَخْلاَقِ والنُّبُلِ ... شَرِيعَةُ الحَقِّ وَالإِنْصَافِ وَالعَدَلِ

هَذِي الرِّسَالَةُ بِالمُخْتَارِ قَدْ خُتِمَتْ ... خِتَامَ مِسْكٍ فَكَانَتْ أَحْسَنَ المِلَلِ

وَذِي مجلَّتُنَا في نَهْجِهَا رَسَمَتْ ... مَآثِرَ الصِّدْقِ وَ«**الإِصْلاَحِ**» بِالعَمَلِ

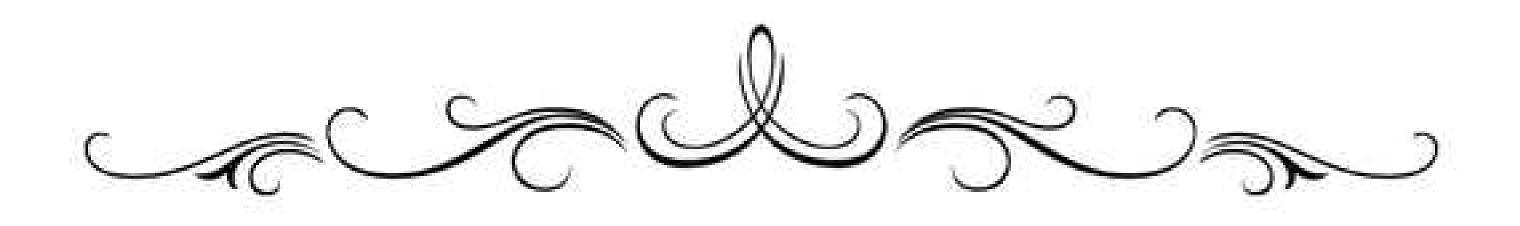
شِعَارُهَا الحَقُّ وَ«**الإِصْلاَحُ**» مَقْصَدُهَا ... وَالاتِّبَاعُ لِهَدْيِ أَفْضَلِ الرُّسُلِ

يَا مُصْلِحُونَ فَهَذَا الدِّينُ دِينُكُمْ ... مُدُّوا يَدَ العَوْنِ «**لِلإِصْلاَحِ**» في عَجَلِ

إنَّ القُلُوبَ إذَا الإِخْلاَصُ تَوَّجَهَا ... فَازَتْ وَآضَتْ إلى الفِرْدَوْسِ وَالنِّحَلِ

إنَّ القُلُوبَ إذَا ازْوَرَّتْ مَقَاصِدُهَا ... خَابَتْ وَصَارَتْ إلى الخِذْلاَنِ وَالفَشَلِ

عمارة قسوم





الإصلاح في الأسرة

(من أين يبدأ وإلى أين ينتهي)

بخيب جلواح

قبل الشُّروع في الموضوع، نقدِّم بين يديه بتعريف كلٍّ من «الأسرة» و«الإصلاح»، فالكلمةُ الأولى: مأخوذةٌ من الأَسْر: وهو الشَّدُّ والعصب، وشدَّة الخلق والخلق، والأسرةُ: هُمْ رَهْطُ الرَّجل الأَدْنَوْنَ، وعشيرتُه التي يتقوَّى بها.

والكلمة الثَّانية: مأخوذةٌ من الصَّلاح: وهو الخير والمنفعة، ضدُّ الفَسَادِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، وقال أيضا: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥٢].

وإصْلاحُ الشَّيء: إقامتُه، وجعْله صالحًا، وإزالةُ ما كان فيه من فساد؛ قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩].

فمن فضل الله تعالى علينا وعلى النَّاس، ومِنْ نعمتِه على البشريَّة جمعاء: أنْ جاءنا بمنهاجٍ شاملٍ قَوِيمٍ في تربية النُّفوس، وتنْشِئَةِ الأجيال، وتكوينِ الأمم، وبناء الحضارات، وإرساء قواعد المجْدِ، وإصلاحِ الأفراد والمجتمعات، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

ولكن ما السَّبيل إلى تحقيق هذه الأهداف السَّامية المنشودة؟ وما البداية الصَّحيحة في تكوين هذا المجتمع الصَّالح؟ وما هي المهمَّة الملقاة على كاهل المربِّين والمرشدين؟ وكيف يمكن تحقيق هذا كلّه؟

الجواب عن هذه الأسئلة سَهْلٌ ومَيْسُورٌ، يَكْمُنُ في كلمة واحدة، ألا وهي: «الإصلاح»، وعلينا أن نعلم أنَّ مدلولات هذه الكلمة كثيرة، ومجالاتها واسعة، منها: إصلاح الفرد، وإصلاح الأسرة، وإصلاح المجتمع، وتحت كلِّ صنف من الأصناف تتفرَّعُ أنواع وتندرِجُ أقسامٌ.

وفي هذه المحاولة نُسلِّط الضَّوءَ على فرع من تلك الفروع السَّالِفَة الذِّكْرِ، وهو: «إصلاح الأسرة».

ولكن؛ لماذا اختيار الأسرة بالدَّرجة الأولى؟

تَعَيَّنَ هذا الاختيار؛ لأنَّ البدْءَ يكونُ بالأهمِّ ثمُّ المهِمُّ، ومن الأهمِّ: «إصلاح الأسرة»، إذ بصلاحها يصلح المجتمع، وإذا فسدت كانت سببًا في فساده، ولأنَّ الأسرة: هي النَّواة والحجر الأساس، واللَّبِنَة الأولى في تكوين المجتمع، ولله درُّ من قال:

منْ يُصلِحِ الأسرةَ يُصلِحْ بهـَا
مـَا دَمَّـرَ الإفسـادُ في قُطْـرِهِ

لقد أَوْلى القرآنُ الكريمُ للأسرة عنايةً كبيرةً، ظهر ذلك فيما احتواه من آيات عديدةٍ جدًّا، في صَدَدِ الأسرة، وذوي الأرحام، والآدابِ السُّلوكيَّة، استهدفت قيام الوحدة الاجتماعية الأولى ـ وهي الأسرة ـ على أفضلِ الأُسُسِ وأقْوَاها، من حيثُ المودَّةُ والإنصافُ وتقوَى الله ومكارمُ الأخلاق والآداب.

وحياة الأسرة جديرةٌ ـ من دون ريب ـ بالعناية، لأنَّها كانت ـ ولا تَزَال ـ أصلاً في الحياة الاجتماعية، فلا غَرْوَ أنْ كانت موضوعَ هذه العناية العظيمة في القرآن الكريم.

والمسائلُ المتعلِّقةُ بإصلاح الأسرة متنوِّعة، منها: ما هو بصدد الحياة الزَّوجيَّة، ومنها: ما هو بصدد الآباء والأبناء، ومنها: ما يتَّصِلُ بالآداب السُّلوكيَّة.

والدَّافع ـ عند المسلم ـ للاهتمام بإصلاح أسرته: عدَّةُ أمور، نذكر منها:

أوَّلا: وقايةُ نفسِه وأهلِه من عقوبة الله، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦**﴾ [التحريم: ٦].

ثانيًا: عظم المسؤوليَّة الملقاة على راعي الأسرة



أمام الله يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَهُ؟ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**» رواه النَّسائي وابن حِبَّان عن أنس[1].

ثالثًا: إنَّ الاهتمام بالأسرة: هو الوسيلة الضَّروريَّة لبناء المجتمع المسلم، لأنَّ المجتمع يتكوَّن من أُسَرٍ، وهي لَبِنَاتُه، فلو صلحت اللَّبنة لكان مجتمعًا قويًّا بأحكام الله، صامدًا في وجه أعداء الله، يُشِعُّ الخيرَ، ولا يَنْفُذُ إليه الشَّرُّ؛ فتخرج من الأسرة المسلمة إلى المجتمع أركان الإصلاح فيه؛ من الدَّاعية القدوة، وطالبِ العلم، والأمِّ المربِّية، وبقيَّةِ المصلحين...

ووسائل إصلاح الأسرة تدور على أمرين اثنين: إمَّا تحصيل مَصَالِح ـ وهو قيام بالمعروف ـ؛ أو درء مفاسد ـ وهو إزالة للمنكر ـ، وتتلخَّص هذه الوسائل في النقاط التالية:

١ ـ حسن اختيار الزَّوجة: على المسلم أن يختار لأبنائه الأمَّ المسلمة، التي تعرف حقَّ ربِّها وحقَّ زوجها وحقَّ ولدها، الأمُّ التي تغار على دينها وسنَّة نبيِّه ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن ثوبان[2]. وفي رواية: «**وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُكَ عَلَى أَمْرِ دُنْيَاكَ وَدِينِكَ، خَيْرُ مَا اكْتَنَزَ النَّاسُ**» رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي أمامة[3].

والأمُّ هي المدرسة الأولى لتَنْشِئَةِ الأجيال، فإنْ كانت صالحة: أَرْضَعَتْ أولادَها الصَّلاح والتَّقوى، وصَدَقَ الشَّاعر:

الأُمُّ مَـدْرَسَـةٌ إِذَا أَعْـدَدْتَهَـا
أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

الأُمُّ رَوْضٌ إِنْ تَعَهَّدَهُ الحَيَـا
بالـرِّيِّ أَوْرَقَ أَيَّـمَـا إِيــرَاقِ

الأُمُّ أُسْتَـاذُ الأَسَـاتِذَةِ الأُلَى
شَغَلَتْ مَآثِرهُمْ مَدَى الآفَاقِ

وَإِنْ كَانَتِ الأمُّ طالحة، فلا يُرجى صلاح أبنائها؛ قال الشَّاعر:

وَلَيْسَ النَّبْتُ يَنْبُتُ فِي جِنَـانٍ
كمـثل النَّـبْتِ يَنْبُتُ فِي الفَلاَةِ

وَهَلْ يُرْجَـى لأَطْفَـالٍ كَـمَالٌ
إِذَا ارْتَضَعْوا ثُدَيَّ النَّاقِصَاتِ

وفي مقابل هذا، لا بدَّ من التَّبَصُّرِ في حال الخاطب الذي يتقدَّم للمرأة المسلمة، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**» رواه التِّرمذي عن أبي هريرة[٤].

والرَّجُلُ الصَّالحُ مع المرأة الصَّالحة يَبْنِيَان بيتًا صالحًا، فالبلدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذن ربِّه، والذي خَبُثَ لا يَخْرُج إلاَّ نَكِدًا.

٢ ـ إصلاح الزَّوجةِ: لابدَّ أن يعلم المسلمُ، أوَّلا: أنَّ الهداية من الله تعالى، واللهُ هو الذي يُصلح النُّفوس، قال تعالى: ﴿**وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ**﴾ الآية [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠]، ومعنى قوله: ﴿**وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ**﴾ قال أكثرُ المفسِّرين: إنَّها كانت عاقرًا: فجعلها الله وَلُودًا؛ فهذا هو المراد بإصلاح زوجه؛ وقيل: كانت سيِّئةَ الخُلُقِ، فجعلها الله سبحانه حسنةَ الخُلُقِ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعًا، وذلك بأنْ يُصلح الله سبحانه ذاتَها، فتكون وَلُودًا، بعد أن كانت عاقرًا، ويُصلح أخلاقَها، فتكون أخلاقُها مرضيَّةً، بعد أن كانت غير مرضيَّة[٥].

ولاسْتِصْلاَحِ الزَّوجةِ وسائلُ، منها: الاعتناء بتصحيح عبادتها لله تعالى، والسَّعيُ لربطها بخالقها؛ بحضِّها وحثِّها على القيام والصِّيام والصَّدقة وتلاوة القرآن وحفظ الأذكار، واختيار صاحباتٍ لها من أهل الدِّين، وإبعادها عن رفيقات وقرينات السُّوء.

٣ ـ تعليم أفراد الأسرة العلم الشَّرعيّ: وهذه فريضةٌ شرعيَّةٌ لابدَّ أن يقوم بها راعي الأسرة، يعلِّم أهلَ بيته ويربِّيهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ وحبَّذَا لو سَطَّرَ منهجًا متواضعًا في هذا الإطار، يتضمَّنُ مختلف أبواب علوم الشريعة كالتفسير والحديث والفقه...

٤ ـ إصلاح الأولاد: بتحفيظهم القرآن الكريم، وتعليمهم الآداب والأذكار الشَّرعيَّة، وتعليمهم أصول العقيدة الإسلامية، كالَّتي وَرَدَتْ في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه: «**يَا غُلاَمُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ**

لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» رواه أحمد والتِّرمذي(٦) ويُدرَّبون على الصَّلاة ويُؤْمرون بها في السَّابعة، ويُفرَّق بين الذُّكور والإناث في المضَاجِعِ، لقوله ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ» رواه أبو داود(٧).

وتُرَغَّبُ البِنْتُ في السِّتْرِ والحجاب والحشمة منذ الصِّغر، لِتَلْتَزِمَهُ في الكِبَرِ، فلا يُلْبِسُها وليُّها القصيرَ من الثِّياب ولا لباس الذُّكور، كي لا تتشبَّه بهم، وتتميَّز عن الجنس الآخر.

وليحذرْ راعي الأسرة أشدَّ الحذر من خروج أولاده مع من لا يعرف من أطفال الحيِّ والجيران، فيرجعوا بأَسْوَءِ الأخلاق وألفاظ السِّباب والشَّتائم؛ بل ينتقي لهم من أولاد الجيران من يصاحبهم؛ لأنَّ «الصَّاحب ساحبٌ» ـ كما يقال ـ ولقد أحسن القائل:

عَنِ المرْءِ لاَ تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فَـكُـلُّ قَـرِينٍ بِالمقَـارِنِ يَـقْـتَدِي

فالأب الذي يُرخي لأولاده العَنَانَ في أن يخالطوا من قرناءِ السُّوءِ ورفقاءِ الشَّرِّ ما شاؤُوا، دونما حَسِيب ولا رقيب، فلا شكَّ أنَّ الأولاد سينحرفون عن الجادَّة، ويكتسبون ـ بمخالطتهم لأولئك القوم ـ أرذل الصِّفات، وأسوأ الأخلاق.

وليكن إصلاح المسلم لنفسه ـ المسؤول عن أسرته ـ قبل إصلاحه ذرِّيَّته وولدَه، فالحَسَنُ عند الأولاد مَا فَعَلْتَ، والقبيحُ ما تَرَكْتَ، وإنَّ حسن سلوك الأبوين ـ أمام الأولاد ـ أفضل تربية لهم، وهو ما يسمَّى بـ«القدوة الحسنة».

قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥] أي: وأصلح لي أموري في ذرِّيَّتِي، الذين وهبتهم لي، بأن تجعلهم هداةً للإيمان بك، واتِّباعِ مرضاتك، والعملِ بطاعتك، واجعلِ الصَّلاح ساريًا في ذرِّيَّتي، راسخًا فيهم.

٥ ـ إزالة المنكرات من الأُسْرَةِ: وذلك بأنْ يعمل راعي الأسرة على إزالة المنكرات ومحاربة الرذائل التي من شأنها أن تهدم كيان الأسرة وتعبث بِقِيَمِها وتلقي بها إلى الإفلاس والفناء.

كما يجب أن يراقب ما يجلبه أولادُه من خارج البيت، وما يحملون في حقائبهم، وما يضعون تحت فُرُشِهِم وأَسِرَّتِهم، وإلى أين تذهب بناتُهم، ومع مَنْ، وما يرتدين خارجَ البيت؟...

فالأب الذي يسمح لأولاده أن يشاهدوا الأفلام التي تدعو إلى الميُوعَةِ والانحلال، وتَحُضُّ على الانحراف والإجرام، والّتي تفسد الكبار فضلاً عن الصِّغار، لا شكَّ أنَّ هذا الأبَ يقذف بأولاده ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ إلى الهاوية.

والأب الّذي لا يراقبُ أولادَه وبناتِه وَقْتَ ذهابهم إلى المدرسة أو رجوعِهم منها أو مكوثِهم فيها، فإنَّ الأولادَ يجدون من إهمال والِدِهم ما يدفعهم إلى ارتياد الأماكن الموْبُوءَةِ والمشبوهة.

وإذا سار الأولاد في مثل هذه الطَّريق، سَيَفْسدُون تدريجيًّا، وتسوء أخلاقُهم، وربَّما وصلوا إلى وضعٍ يصعب حينئذ ردُّهم وإصلاحُهم، ومعالجةُ حالهم.

ولكن يُراعَى أن تكون هذه المراقبة خفيَّةً لا يشعر الأولاد بفقدان الثِّقة بينهم وبين أوليائهم، وينبغي أن يُراعَى في النُّصح والتَّوجيه أعمارُ الأولاد ومدارِكُهم، ودرجةُ أخطائهم، حتَّى لا يشعروا بظلم وحيف.

هذا؛ والكلام عن الإصلاح يبقى موضوعًا مهمًّا، لاسيَّما عند المربِّين، وذلك كفيل بأنْ يحقِّق للأمَّة ما تصبو إليه من صلاح أبنائها وبناتها.

والحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد الخلق أجمعين، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

---

(١) «صحيح الجامع» (١٧٧٥).

(٢) «صحيح الجامع» (٥٢٣١).

(٣) «صحيح الجامع» (٤٢٣١).

(٤) «السّلسلة الصَّحيحة» (١٠٢٢).

(٥) «فتح القدير» (٣/ ٤٢٥) للشَّوكاني.

(٦) «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٧) «مشكاة المصابيح» (٥٧٢).



معنى الإصلاح والإفساد

* قال الطبري في «تفسيره» (١/ ٧٥ ـ مؤسسة الرسالة):

«معنى الإفسادِ: هو ما ينبغي تركهُ ممَّا هو مَضَرَّةٌ، وأنَّ الإصلاحَ: هو ما ينبغي فِعله ممَّا فِعلهُ مَنْفَعَةٌ».



إصلاح الأسرة

* قال ابن باديس في «تفسيره» (ص: ٤٩٢):

«...هكذا على المرْءِ أنْ يبدأ في الإرشاد والهدايةِ بأقرب النَّاس إليه، ثمَّ مَنْ بعدَهُم على التَّدريجِ.

وعندما يقوم كلُّ واحدٍ منَّا بإرشاد أهلِه، وأقربِ النَّاس إليه، لا نَلْبَث أن نرى الخيرَ قد انتشر في الجميع؛ فَمِنَ الأسرِ تتركَّبُ الأُمَّةُ؛ فعندما يُعنَى كلُّ واحدٍ بأسرته تَرْتَقِي الأمَّةُ كلُّها بارتقاء أُسَرِهَا، كارتقاء أيِّ كلٍّ بارتقاءِ أجزائِه، فيكون المعتني بأسرته في الوقت نفسِه معتنيًا بأمَّتِه؛ وعندما يقصد بخدمة أسرتِه خدمةَ أمَّتِه، يثابُ ثوابَ خادمِ الجميع؛ أسرتِه بالفعل، وأمَّتِه بالقصدِ؛ أو أسرتِه مباشرةً وأمَّتِه بواسطةٍ؛ وكلُّ هذا ممَّا يثابُ المرءُ شرعًا عليه».



قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾

* قال السَّعدي في «تفسيره»:

«والسَّاعي في الإصلاحِ بين النَّاس أفضل من القَانِتِ بالصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدقةِ، والمصلحُ لا بُدَّ أنْ يُصلِح الله سعيَه وعملَه.

كما أنَّ السَّاعي في الإفساد لا يُصلح اللهُ عملَه ولا يُتِمُّ له مقصودَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونس: ٨١]، فهذه الأشياءُ حيثما فَعَلْتَ فهي خيرٌ، كما دلَّ على ذلك الاستثناءُ.

ولكن كمالُ الأجرِ وتمامُه بحسب النِّيَّةِ والإخلاصِ، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤] فَلِهَذَا ينبغي للعبدِ أن يَقْصِدَ وجهَ الله تعالى ويُخْلِصَ العملَ لله في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ جزءٍ منْ أجزاءِ الخيرِ، ليحصل له بذلك الأجرُ العظيمُ، وليَتَعَوَّدَ الإخلاصَ فيكون من المخلصين، وليُتَمَّ له الأجرُ، سواء تَمَّ مقصودُه أم لا؛ لأنَّ النِّيَّةَ حَصَلَتْ واقترن بها ما يُمكن من العمل».



* قال الحَسَنُ لِرَجُلٍ: «دَاوِ قلبك، فإنَّ حاجةَ الله إلى العبادِ صَلاَحُ قُلُوبِهِم».

قال ابنُ رَجَبٍ في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢١١ ـ طبعة الرسالة):

«يَعْنِي أنَّ مُرادَه مِنْهُم ومطلوبَهُ صلاحُ قلوبِهِم، فلاَ صلاحَ للقلوب حتَّى تَسْتَقِرَّ فيها معرفةُ اللهِ وعظمتُه ومحبَّتُه وخَشْيَتُه ومَهَابَتُه ورَجَاؤُه والتَّوكُّلُ عليه، وتَمْتَلِئَ مِنْ ذَلِكَ، وهذا هو حقيقةُ التَّوحيدِ وهو معنى لا إله إلا الله...».



* قال ابن القيِّم في «إعلام الموقِّعين» (٢/ ٢٠٢ ـ تحقيق حسن مشهور):

«والحقوق نوعان: حقٌّ لله وحقٌّ لآدمي، فحقُّ الله لا مدخل للصُّلح فيه؛ كالحدود والزَّكوات والكفَّارات ونحوها، وإنَّما الصُّلح بين العبد وبين ربِّه في إقامتها، لا في إهمالها، ولهذا لا تُقْبَلُ الشَّفاعة في الحدود، وإذا بلغت السُّلطانُ فَلَعَنَ اللهُ الشَّافع والمشفّع.

وأمَّا حقوق الآدميِّين، فهي التي تقبل الصُّلحَ والإسقاطَ والمعاوَضَة عليها، والصُّلحُ العادلُ هو الذي أمر الله به ورسولُه ﷺ، كما قال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩].

EDITORIAL

La purification de l'âme à l'échelle de l'individu à la base d'une réforme de la communauté

Traduction: Amine cherif zehar

Louanges à Allah, seigneur de l'univers ; Que les salutations d'Allah soient sur son messager qu'Il a envoyé en qualité de miséricorde universelle, ainsi que sur ses compagnons et ses frères jusqu'à la résurrection.

Notre communauté a, aujourd'hui, un besoin des plus urgents que chaque individu qui la compose se range sous sa bannière de façon à ce que chacun représente une brique utile, servant son édification, renforçant ses assises et élevant son rang, car la communauté se perd, simplement par la déperdition de ses individus. De même, la bonne santé de la communauté résulte du bon comportement de ses composants. Allah a loué les vertus de la meilleure communauté d'hommes que l'humanité ait connu et qui a porté des qualités inégalables dans un contexte non musulman. C'est la communauté qui a compris au juste sens voulu par Allah, la profession de foi « lâ illâha illâ-l-lâh Mohamed Rassoul Allah » (Il n'y a d'autre divinité digne d'adoration qu'Allah et Mohamed est son messager). Cette profession n'était pas pour eux un mot éphémère loin de son sens et de ses applications dans tous les domaines de la vie, ni une affaire de faible importance dont ils parlaient et leurs cœurs accrochés ailleurs avec des comportements en opposition avec ce qu'ils disaient, mais ils l'avaient parfaitement comprise et respectée. Allah a dit: *«Vous êtes la meilleure communauté qu'on ait fait surgir pour les hommes vous ordonnez le convenable, interdisez le blâmable et croyez à Allah»* **(Coran, chap. 3, vers. 110). Ils étaient scindés autour d'une même croyance, empruntant la même trajectoire sans le moindre défaut, comme les a ordonné leur dieu l'Exalté :** *« Et voilà Mon chemin dans toute sa rectitude, suivez-le donc; et ne suivez pas les sentiers qui vous écartent de Sa voie. »* **(Coran, chap. 6, vers. 153), formant une société croyante ayant une personnalité d'une rare force, réunis**

autour du monothéisme le plus strict, adhérant pleinement à sa doctrine et mettant en pratique ses enseignements. Par la doctrine du monothéisme se réalisait pour la première fois dans l'histoire de l'humanité une union basée sur une adoration exclusive d'Allah sous toutes ses formes, et sur un suivi sans faille du prophète (qsassl) considéré comme l'unique guide et modéle, et l'attachement à sa conduite en appelant les autres à s'y attacher et à s'éloigner de toute innovation religieuse. Ces qualités ont élevé cette communauté du plus bas niveau dans lequel elle se trouvait, au mérite d'atteindre des rangs de la seigneurie. Par leurs mains, Allah a donné naissance aux conquêtes auxquelles jamais l'histoire n'avait connu de semblables ni avant ni après : l'islam, en un demi siècle se taillait un empire allant de l'océan atlantique à l'océan indien: *« A ceux d'entre vous qui auront cru et fait le bien Allah promet formellement de donner la suprématie sur terre, comme Il l'a donnée à d'autres les ayant précédés. Il etablira, fermement à leur intention, le culte qu'Il a choisi pour être le leur. Il changera leur crainte en sécurité. Qu'ils M'adorent sans rien M'Associer ! Ceux qui, après cela, renieroont leur foi, seront en vérité des pervers »* (Coran, chap. 24, vers. 55).

C'est à travers les caractéristiques de cette génération et de ses constantes originales que s'est développée l'attention de l'islam à l'élément psychique de l'individu. Car la reforme psychique de l'individu constitue la base fondamentale de sa reforme et de la reforme de sa communauté. C'est la pierre angulaire à sa droiture et à son bonheur dans ce bas monde et dans l'au-delà. Le psychique est composé –du point de vue force ou faiblesse– des deux aspects suivants :

1 - un aspect positif inné en chacun qui consiste en l'amour de la vérité et du bien et qui lui permet d'être heureux d'apprécier les choses à leur vérité et d'en et d'être répugné par les effractions à ces vérités. Sans l'influence d'éléments extrinsèques, ce caractère inné demeure dans un état intact par sa droiture et sa paix. Il engendre alors la religion de l'islam et implique son corollaire qui est la croyance en le Créateur, l'amour de ce Créateur et la vocation d'un culte exclusif à ce Créateur. Ibn Taymiyya dit dans ce sens : *« Allah a déposé dans le cœur de chaque être humain des connaissances innées qui le rendent apte à discerner entre le bien et le mal, qui le rendent apte à discerner les choses et à les comprendre et, n'était-ce cette aptitude innée, tout raisonnement, toute contemplation, toute explication auraient été vains. Cela est pareil au fait qu'Allah a fait inné l'aptitude des corps à se nourrir et s'abreuvoir et, n'était-ce cette aptitude, il n'aurait pas été possible de se nourrir et de se développer. Tout comme les corps sont capables de discerner entre les bonnes nourritures de celles qui ne le sont pas, les cœurs sont dotés d'une faculté plus grande à faire la différence entre ce qui est vérité et ce qui n'est que chimère. »*.

2 - Un aspect négatif qui vient affaiblir l'instinct naturel et éteindre sa lumière. Ainsi, par ce facteur négatif, l'instinct peut se déformer au point de faire passer l'individu dans le camp des

infidèles et des païens. Ce facteur peut être un caractère mauvais ou encore un environnement malsain dans lequel évolue l'individu. Dans ce sens, un hadith du prophète énonce: *« Chaque enfant vient au monde en ayant la foi. Ce sont ses parent qui le judaïsent, le christianisent ou en font un mazdéen »*. **Ça peut-être également des impulsions démoniaques allant dans tous les sens qui peuvent le dévier du droit chemin. Dans cet autre sens, le prophète narre les paroles de son seigneur :** *« j'ai créé tous mes serviteurs dans un état de sainteté. Les démons sont alors venus à eux les extirpant à leur religion, leur interdisant ce que je leur ai fait licite et leur ordonnant de m'associer dans leur culte ce que je ne leur ai point commandé »*. **Ainsi, le destin de l'homme dans ce monde et dans l'au-delà s'est trouvé dépendant duquel des deux facteurs l'emporte : le facteur du bien et de la piété ou le facteur du mal et de l'impiété. Celui qui oeuvre à purifier son âme par l'obéissance à Allah et à s'éloigner des caractères vils et des actes détestables a gagné. Celui qui, à l'opposé, ne l'a pas entretenue et l'a avilie au point de pécher et d'abandonner l'obéissance à son seigneur, celui-là a perdu. Cette vérité est inscrite dans ces versets :** *« Et par l'âme et ce qu'il la equilibrée; 7. lui inspirant ou sa révolte ou sa piété ! 8. En vérité sera heureux qui purifie son âme. 9. Tandis que courra à sa ruine qui la souille.10»* **(Coran, chap. 91, vers. 7-10).**

C'est pour cette raison qu'Allah a envoyé ses messagers pour rappeler aux âmes leurs devoirs de veiller à leur pureté innée par la connaissance d'Allah avec détail et clarté, son amour, son adoration et son obéissance exclusives, la connaissance des causes qui détournent de la voie innée est l'empêchent de la suivre. Leur mission fut également de mettre en garde contre la soumission aux pulsions démoniaques et aux caractères hideux qui s'emparent de l'âme et lui font diminuer sa force, la jetant dans les confins de l'égarement et dans les cercles du libertinage, l'éloignant, par là, du sentier d'Allah. Les messagers ont oeuvré à purifier les âmes de tous les vices et de toutes les turpitudes qui les détournent de leur vocation. *« Relève donc la tête pour te vouer au culte pur de l'Un, selon la nature innée dont Allah a pourvu les hommes en les créant. Ce qu'Allah a créé ne peut être modifié Telle est la religion droite. Mais la plupart des hommes n'en savent rien »* **(Coran, chap. 30, vers. 30). Ibn al-Qayyim dit :** *« Telle est la vocation des religions que les messagers ont prêchées. Elles ordonnent le bien, interdisent le mal, rendent licite ce qui est bon et illicite ce qui est mauvais, commandent la justice est proscrivent l'iniquité. Et toutes ces vertus sont, à l'origine, innées dans l'âme de tout individu. La mission des prophètes fut de les dévoiler de les mettre en évidence »*.

C'est sur la base de la voie prêchée par les messagers d'Allah que repose la prédication des réformistes qui appellent à la croyance en l'unicité d'Allah, seigneur de l'univers, à son adoration, à son amour est à la vocation d'un culte exclusif. Tel est le fondement de la religion et le thème de la prédication de tous les prophètes et messagers. C'est la pierre angulaire des œuvres, le critère

de la seigneurie dans ce monde et du salut dans l'au-delà. C'est par cette voie que la communauté sera soudée autour de son guide Mohamed, que les salutations d'Allah soient sur lui. Point d'unité sans une croyance absolue en l'unicité d'Allah et point d'union des rangs sans avoir pour guide unique Mohamed.

Le domaine de la réforme religieuse invite ceux qui s'y inscrivent à éviter aux caractères innés les pulsions qui sont en contradiction avec le monothéisme pur, et à mettre en garde contre les idéologies impies, les manifestations d'associationnisme, les formes de croyances populaires perfides, les catégories d'innovations religieuses et la lutte contre les causes de la déviance par rapport à la religion innée, tout cela en faisant émerger la vérité, en ordonnant le bien et en combattant le mal par le biais du savoir religieux authentique qui forme le thème de l'islam et sa substance et ce, en s'appuyant sur la méthode du Coran, de la Sunna et sur la tradition des compagnons du prophète et de leurs disciples.

Le domaine de la réforme religieuse invite également ses partisans à s'attacher corps et âme à la loi d'Allah fort valable pour tous les domaines de la vie sur lesquels repose leur bien-être dans ce monde et dans l'au-delà et à prêcher l'attachement aux bonnes mœurs, au concepts du bien et de la bienfaisance, à oeuvrer ensemble dans la vérité et le bien en employant la méthode de prédication enseignée dans le verset : *« Emploies toi Par la sagesse, la douce exhortation à appeler les hommes vers la voie du seigneur. Discutes avec eux sur un ton modéré »* **(Coran, chap. 16, vers. 125).**

Le domaine de la réforme exige de ceux qui y adhèrent d'être de fins connaisseurs des méthodes de la prédication, à avoir une connaissance parfaite de la religion, de ses hautes finalités et de ses nobles objectifs, tout cela associé à une étroite et constante liaison avec Allah. *« Dis : "Voici ma voie, appeler à Allah en toute clairvoyance. Et c'est aussi la voie de ceux qui me suivent. Gloire à Allah ! Je ne suis pas du nombre des païens »* **(Coran, chap. 12, vers. 108). Ils doivent éviter dans leur mission toute grossiéreté ou mauvaise maniére. L'appel à Dieu par la douceur étant une caractéristique majeure de la vraie prédication de l'islam. Les prédicateurs doivent s'éloigner des bas desseins et ne pas se laisser séduire par le charme de la vie, car la soumission aux saveurs de la vie et l'oubli de l'au-delà constitue le chemin vers la déperdition.** *« Ô vous croyants ! Que le souci, de vos enfants, de vos richesses, ne vous distraient point de la pensée d'Allah ! Ceux qui s'en laisseront détacher auront tout perdu »* **(Coran, chap. 63, vers. 9). Les prédicateurs se doivent d'avoir une confiance absolue en Dieu, d'avoir pour parure l'endurance dans leur appel au bien, à la lucidité d'esprit et aux rangs de la seigneurie. Ils doivent toujours avoir à l'esprit combien le prophète a affronté d'opposition perfide, d'objections de toutes sortes et de toutes les couleurs. Il a été endurant et patient jusqu'à ce que Dieu lui ait accompli sa religion et**

lui a fait connaître l'expansion dans les horizons.

L'endurance des prédicateurs pour une réforme de la société est une nécessité du parcours parce que cette endurance à l'encontre du dédain des incrédules, du mécontentement des pervers, du rejet par leurs auditoires, tout cela est une des caractéristiques des gens pieux. « *Comment pourrions nous ne pas nous en remettre à Allah ? Lui qui nous a fait suivre les voies les plus sures pour notre salut ! Aussi bien, sommes nous fermement résolus à supporter vos outrages ! Allah est le digne soutien de ceux qui l'implorent* » **(Coran, chap. 14, vers. 12). C'est aussi un caractère des guides sur le droit chemin.** «*Nous avons suscité, parmi eux, des chefs spirituels qui guidaient des hommes, selon nos ordre, cela pour avoir su préserver dans Notre voie et avoir cru fermement en Nos Signes* » **(Coran, chap. 32, vers. 24).**

Si la réforme d'un individu s'accomplit pleinement, une pierre aurait été taillée pour servir à l'édification de la société musulmane devant laquelle viendront se placer d'autres pierres bien taillées élevant par là l'édifice de la nation musulmane qui est semblable à une construction bien faite où toutes les pierres se tiennent les unes les autres. La nation ainsi construite rendra heureux les croyants à l'unicité d'Allah, par l'entraide de ses individus, sa force, son élévation et sa domination sur terre à travers les âges et dans toutes les circonstances. « *Certes, cette communauté qui est la vôtre est une communauté unique, et Je suis votre Seigneur. Adorez-Moi donc* » **(Coran, chap. 21, vers. 92).**

Nous prions Allah de nous apporter la victoire par notre attachement à son anse solide, de rassembler nos cœurs sur la piété de la foi, de raffermir les pas de ceux qui oeuvrent à la réforme, d'être avec eux et de les réunir de façon à s'entraider dans la piété et de se conseiller les un les autres à rester sur le droit chemin et à avoir la patience requise. Allah connaît les visées de chacun de nous et guide vers le droit chemin.

Louanges à Allah et que les salutations de Dieu soient sur son prophète, sa famille, ses compagnons et ses frères jusqu'au jour de la résurrection.